



أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر : دار زهور المعرفة والبركة

١٢٧ ش أثر النبي خلف مسجد الرحمن مصر القديمة

٠١٢٢٦٤٠٦٤٨٩ - ٠١٠٠٠٧٤١١٦٤

البريد الإلكتروني [yuness2005@hotmail.com](mailto:yuness2005@hotmail.com)

محمد يونس هاشم

# أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع

خصائص الأخلاق الإسلامية .

المفهوم الأخلاقي لـ : الالتزام ، والمسئولية ، والجزاء .

علاقة الأخلاق بنهضة الشعوب وانهايارها .

في سبيل إصلاح الأخلاق وتقدم الأمة .



وزارة التعليم والعلوم

٢ ش مكة المكرمة - أرض الفؤاء - الجيزة

١١٢١٩٩٦٦٦ - ١٢٢٩ - ٦٩٢١٨

هاشم ، محمد يونس .

عبقريّة محمد للعقاد مع ضبط وتخريج الأحاديث النبوية ، ومناقشة آراء العقاد الدينية  
وذكر مفتاح شخصية سيد البشرية / محمد يونس هاشم . ط ١

الجيزة : دار زهور المعرفة والبركة ، ٢٠١٤ .

ص ٢٣٩ - ١٧ × ٢٤

في رأس العنوان : فصول من تاريخ مصر المعاصر

تدمك ٩٧٨٩٧٧٥١٧٢٢٨٠

١- مصر - تاريخ - العصر الحديث - ثورة ٢٣ يوليو (١٩٥٢)

٢- مصر - تاريخ - العصر الحديث - محمد نجيب (١٩٥٢ - ١٩٥٤)

أ- العنوان

٩٦٢.٠٦٥

رقم الإيداع / ٢٧٠٦١ - ٢٩ / ١٢ / ٢٠١٤

الترقيم الدولي 5 - 28 - 5172 - 977 - 978

محمد يونس هاشم

# أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع

خصائص الأخلاق الإسلامية .

المفهوم الأخلاقي لـ : الالتزام ، والمسؤولية ، والجزاء .

علاقة الأخلاق بنهضة الشعوب وانهيارها .

في سبيل إصلاح الأخلاق وتقدم الأمة .

## المقدمة

الأخلاق هي ثمرة ما يتعلمه الإنسان من قيم دينية واجتماعية وسلوكية، وهي مقياس صلاح المجتمعات وفسادها وأساس تحضرها وتخلفها بل هي ميزان الإيمان الحقيقي والزائف .

ومكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى تراجعت الأخلاق الصالحة تفكك أفراد المجتمع، وتصارعوا، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار، ثم إلى الدمار .

وقد يقول بعض الناس ولكن انهيار المجتمعات هذا يهدد الأمم غير الإسلامية فالدين والتدين يحمي مجتمعاتنا الإسلامية ، ونقول لهؤلاء إن التدين الصحيح الذي يثمر أخلاقاً حسنة هو الذي يحمي المجتمعات الإسلامية ، ولكن انفصال التدين عن الخلق الكريم والسلوك القويم يفسد المجتمع ويسيء للإسلام .

ومن صور فساد المجتمعات الإسلامية والإساءة إلى الإسلام وتشويه صورة المسلمين أن نجد أن أداء بعض الناس العبادات يُسيء من أخلاقهم بدلاً من تحسينها حيث يظنون أن مجرد أدائهم العبادة يضمن

لهم غفران الذنوب مهما عظمت ، ودخول الجنة مهما أذنبوا ، فيظنون أن صلاتهم وإن لم تتهم عن الفحشاء والمنكر ، وصيامهم وإن لم يثمر تقوى، وزكاتهم وإن لم تطهرهم ، وصومهم عن الطعام والشراب والجماع وإفطارهم على الرفث والفسوق والسباب ، وحجهم وإن رفثوا فيه وفسقوا وتجادلوا سوف ينجيهم من عذاب الله ويدخلهم جناته ، وهم يتجاهلون أن الغاية من بعثة النبي ﷺ هي إتمام محاسن الأخلاق ، وأن الدين حسن الخلق ، وأن امرأة دخلت النار بسبب إيذائها جيرانها بلسانها رغم كثرة صلاتها وصيامها وصدقها ، وأن أول من تُسعر بهم جهنم ثلاثة عالم ، وشهيد ، ومُتصدق ، وأن المُفلس من الحسنات يوم القيامة ليس فقط الذي لم يكتسبها في الدنيا إنما من يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، وقد شتمَ هذا، وقذَفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفَكَ دمَ هذا، وضربَ هذا، فيُقضى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحه عليه، ثم طرح في النار .

وفي مقابل أن سوء الخُلق يجلب سخط الله ورسوله والناس ويمحو الحسنات ويورد صاحبه المهالك في الدنيا والنار في الآخرة ، فإن حسن الخلق يجلب محبة الله ورسوله والناس ويمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات ويدخل صاحبه أعلى الجنان .

وفي هذا الكتاب نحاول بيان علاقة النفس الإنسانية بالأخلاق ، وخصائص أخلاق الإسلام ، وفضل حسن الخلق ، ومفهوم الالتزام

﴿ أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع ﴾

والمسئولية والجزاء في الإسلام ، وعلاقة الأخلاق بتقدم الشعوب  
وانهيارها ، وأسباب تقدّم الغرب في العصر الحديث وتخلف المسلمين .  
وسبيل إصلاح الأخلاق وتقدّم الأمة .

والله نسأل أن يساهم هذا الكتاب في تحسين الأخلاق وتنمية المجتمع  
ونهضة الأمة .

﴿ إِنَّ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ  
وَالْيَهُ أَنْيَبُ ﴾ [هود: ٨٨]

محمد يونس هاشم

\*\*\*



## الفصل الأول

### علاقة النفس الإنسانية بالأخلاق



## علاقة النفس الإنسانية بالأخلاق

### المسئول عن سلوك الإنسان

النفس الإنسانية هي ذات الإنسان ولها ظاهر هو الخلق ( الجسد ) ، كما أن لها باطن هو الخلق .

فالخلق هو صفة نفسية باطنية تصدر عنها أفعال الخلق ( جوارح الإنسان ) والله تعالى سخر الخلق لتنفيذ إرادة الخلق لذا لا يحاسب الإنسان على كيفية خلق جوارحه لأن الإنسان لا إرادة له في خلقها إنما هي مخلوقة بإرادة الله تعالى وقدرته ، إنما الله تعالى يحاسب الإنسان على خلقه لأنه يصدر بإرادته الإنسانية وقدرته .

فالإنسان إذا سرق فيده غير مسئولة عن السرقة إنما هو خلقه لذا لا عجب أن تشهد الجوارح على الإنسان يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾ [فصلت: ٢١]

### الفرق بين الإنسان وسائر المخلوقات

والله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] وصوره في أحسن صورة ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ

صُورَكُمْ ﴿ [ غافر : ٦٤ ] فالله تعالى هو ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى \* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [ الأعلى : ٢ ، ٣ ] .

فالله تعالى قد خَلَقَ الإنسان - وسائر المخلوقات - وقَوَّمه وعدَّله وجعله سَوِيًّا في إحكام واتساق مناسِبين لما خُلِقَ له ، والله تعالى قَدَّرَ للإنسان - وسائر المخلوقات - ما يُصْلُحه ثمَّ هُدهِإ إليه ﴿ .. رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [ طه : ٥٠ ] .

ولما كان الإنسان هو الذي قبل أن يكون عاقلاً مُخْتَاراً مُكَلَّفاً بشرع الله يُعَاقَب إذا عصى الله تعالى وظلم نفسه وغيره بدخول جهنم ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى \* وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا \* فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [ النازعات : ٣٦ - ٣٩ ] ويُنَاب إذا أطاع الله ، وكفَّ نفسه عن الشهوات بالإقامة الدائمة في الجنة ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى \* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [ النازعات : ٤٠ ، ٤١ ] .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [ الأحزاب : ٧٢ ]

لقد قبل الإنسان إذن أن يكون عاقلاً مختاراً مُكَلَّفاً ، لذا جعله الله تعالى مُهَيَّأً لفعل الصالحات بإرادته وفعل السيئات بمشيئته ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا \* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ وهذه النفس الإنسانية التي جعلها الله حُرَّةً مختارة عَرَفَهَا الخيرَ والشرَّ وما يصلحها وما يفسدها ، على لسان أنبيائه ورسله ، وما أرسله معهم من صحفه وكتبه ، وهيَّأها لفعل الخير والشر ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ والفائز بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة هو الذي اتَّبَعَ رسل الله وما أتوا به من كتب مقدسة ، وطهَّرَ

نفسه من المعاصي والآثام وألزمها بفعل الطاعات وعمل الصالحات {وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} والخاسر في الدارين من كفر بالله ورسله وكتبه وأغرق نفسه في المعاصي والشرور .

ولقد شاعت حكمة الله تعالى أن يجعل الدنيا دار بلاء وفتن وغرور للإنسان ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [ الأنفال : ٣٧ ]

### أعوان الإنسان على الإيمان وحسن الخلق

ولقد جعل الله تعالى للإنسان أعواناً على الإيمان والطاعة :

١- الروح : وهى نفخة من روحه سبحانه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ ص : ٧٢ ] وهى تهفو إلى معرفة الله، وتطمئن بالإيمان به وتسكن بعبادته جل وعلا والتحلي بصفاته سبحانه.

﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [ الروم : ٣٠ ]

٢- العقل : وهو ما يميز به الحق من الباطل ، الخير من الشر ، والحسن من القبيح " ويصف حجة الإسلام الغزالي العقل بأنه ( أنموذج من نور الله ) ويصفه الجاحظ بأنه ( وكيل الله عند الإنسان ) ومن هنا كانت أول كلمة من الوحي الإلهي على محمد ﷺ هي ﴿اقرأ﴾ تتجه إلى مخاطبة العقل " (١)

(١) د. محمود حمدي زقزوق " هموم الأمة الإسلامية " ص ١٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣- القلب السليم : هذا القلب الذي جعله الله تعالى محلا لأمانة الدين، وفطره الله تعالى على حبه والافتقار إليه والعز في الذل له والخشية منه والتوكل عليه ، هذا القلب الذي على أصل الفطرة " التقى النقي الذي لا إثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد " .

٤- الأنبياء والرسل : الذين أنزلهم الله بالهدى ودين الحق وحسن الخلق ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وليبشروا المؤمنين الصالحين بالجنة وينذروا الكافرين والعصاة بالنار .

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [ البقرة : ٢١٣ ] .

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ \* وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [ الأنعام : ٤٨ - ٤٩ ] .

﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [ النساء : ١٦٥ ] .

٥- شريعة الله ومنهاجه التي أنزلها على الرسل لتكون بمثابة الدستور الإلهي الذي يحتكمون إليه في الدنيا والذي يُحَاكَمُوا بمقتضاه يوم القيامة.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [ المائدة : ٤٨ ] .

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [ الصف : ٩ ] .

### أسباب شقاء الإنسان في الدنيا والآخرة

وكما أن الله تعالى جعل للإنسان أعواناً على الإيمان وحسن الخلق ابتلاه ببعض الفتن منها أربع جاءوا في قول الشاعر :

إني بليت بأربع ما سلطت \* إلا لأجل شقاوتي و عنائي  
إبليس والدنيا ونفسي و الهوى \* كيف الخلاص وكلهم أعدائي  
إبليس يسلك في طريق مهالكي \* و النفس تأمرني بكل بلائي  
وأرى الهوى تدعو إليه خواطري \* في ظلمة الشبهات و الآراء  
وزخارف الدنيا تقول أما ترى \* حسنى وفخر ملابسي وبهائي  
وكان بلاء الله تعالى لإنسان ؛ ليعلم الذين آمنوا .

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [ آل عمران : ١٤٠ ]

وليعلم الله الصابرين المهتدين .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ  
وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا  
إِلَيْهِ رَاغِبُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ  
الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٥-١٥٧]

وليعلم الله تعالى أي الناس أحسن عملاً .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى  
الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ  
لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود : ٧] .

أما المؤمنون فيسارعون في الإيمان ، وعمل الخيرات ، وتركية النفوس  
مستجيبين لنداء الفطرة والعقل والرسول فتؤمن قلوبهم ، وتحسن أخلاقهم  
وتنفذ جوارحهم شرع الله .

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ  
لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٣] .  
﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا  
أَحَدًا ﴾ [الجن : ١-٢] .

واستجابوا لأوامر الله واحتكموا لشرعه .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ  
يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٥١] .

ويزيدهم الله تعالى إيماناً وهدى .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : ١٧] .

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ [ مريم : ٧٦ ] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [ يونس : ٩ ] .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [ الكهف : ١٣ ] .

ويحبب إليهم الإيمان ويزينه في قلوبهم ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [ الحجرات : ٧ - ٨ ] .

أما أولئك الكافرون الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فإن الله تعالى لا يهديهم بل يطبع على قلوبهم فلا يخرج منها الكفر ولا يدخل فيها الإيمان .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

[ النحل : ١٠٧ - ١٠٩ ]

وكذلك من ظلم نفسه باتباع هواه وجدد هدى الله ، ودس نفسه في الرذائل .

﴿ قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [ القصص : ٤٩ - ٥١ ]

### واقعية شريعة الإسلام

إن القرآن الكريم يوجه خطابه إلى الإنسان الحي الواقعي بفضائله ورذائله ، وبقوته وضعفه ، محيطاً بكل ما يكتنف حياته من صعاب وعراقيل تعوقه عن تحقيق الحياة الفاضلة ، وفي مقدمتها الصراع بين هوائف الشيطان ونوازع النفس الأمارة بالسوء ، وبين الروح العلوية التي نُفخت فيه فجعلته يتطلع إلى الارتقاء الروحي والسمو الأخلاقي ، وكأنه يود التخلص من الهيكل الجسماني الذي يحبسه عن الانطلاق وراء اللانهائي .

والإنسان كما أنه ناقص فهو في نفس الوقت قابل لاكتساب الكمال عن طريق الجهد الوارد في تعريف الإيمان بقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [ الحجرات: ١٥ ]

وقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

والقرآن يتبع التدرج في التقديرات الأخلاقية بدءاً من طلب فعل الخير دون زيادة إلى الترقى لبلوغ مستوى الكمال إلا ما نهاية متمثلاً في التضحية بكل شيء نفيس حتى النفس من أجل القيمة العليا الأعلى من

الحياة حيث حققه الصحابة كأول تطبيق في حياة الأمة في موقعة بدر الكبرى .

إن الأخلاق هي روح الشريعة التي من دواعي الفخر بها إنها تقيم مجتمعاً سعيداً وقوياً ومتضامناً ، فالإسلام وسط واعتدال بين شريعة الخوف وشريعة الحب .

وخلاصة القول إن فكرة طاعة الله عز وجل لا تخلو من الاعتقاد بأن أوامره هي أحكم الوسائل لتحقيق أعظم الخير للإنسانية وللكون كله .. والقرآن الكريم يعنى عناية فائقة بربط كل تعاليم من تعاليمه بالقيمة الأخلاقية التي يتأسس عليها " (١)

وقبل الاستفاضة في أهمية الأخلاق وأثرها وتطبيقاتها نبداً أولاً بتعريفها حتى نضبط المصطلح الذي نتحدث عنه ولا نبني أحكامنا على مجهول أو مختلف في فهمه .

\*\*\*

(١) د. مصطفى بن محمد حلمي في تقديمه لكتاب " مختصر دستور الأخلاق في القرآن الكريم " د. محمد عبد الله دراز ، تلخيص وإعادة صياغة وإعادة ترجمة محمد عبد العظيم علي دار الدعوة الطبعة الأولى ١٩٩٦ .



## الفصل الثاني

### خصائص الأخلاق في الإسلام

## خصائص الأخلاق في الإسلام

### ما الأخلاق ؟

الخلق في اللغة : معناه الطبع والسجية والدين ، والخلق ميل يغلب علي الإنسان باستمرار حتى يصير له عادة .

تعرف بعض معاجم اللغة العربية الحديثة الأخلاق بأنها :

مجموعة صفات نفسية وأعمال الإنسان التي توصف بالحسن أو القبح.

وعلم الأخلاق : أحد أقسام الفلسفة وهو علم نظري يحدد مبادئ عمل الإنسان في العالم ، وغرضه تحديد الغاية العليا للإنسان ، أو هو علم بالفضائل وكيفية التحلي بها ، والردائل وكيفية تجنبها .

وقيل الخلق هو : قوة راسخة في الإرادة تنزع إلي اختيار ما هو خير وصالح. إن كان الخلق حميداً. أو إلي اختيار ما هو شر وفساد إن كان الخلق ذمياً . (١)

### هل الأخلاق نسبية أم مطلقة ؟

يدعي البعض أن الأخلاق أمور اعتبارية نسبية لا ثبات لها، تختلف من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان، ومن أمة إلى أمة. فالذي يُعتبر منافياً للأخلاق عند شعب من الشعوب، لا يعتبر منافياً للأخلاق

(١) د. بدر عبد الحميد هميسه " الأخلاق في الإسلام " موقع صيد الفوائد .

عند شعب آخر، وبعض ما كان مُسْتَكْرًا فيما مضى قد يعتبر مُسْتَحْسَنًا في عصر آخر، فالأخلاق عند هؤلاء مفاهيم اعتبارية تتواضع عليها الأمم والشعوب، وليس لها ثبات في حقيقتها .

وإنَّ أسباب الخطأ عند أصحاب فكرة نسبية الأخلاق ، ترجع إلى ثلاثة:

الأول : تعميمهم اسم الأخلاق على أنواع كثيرة من السلوك الإنساني، فلم يميزوا الظواهر الخُلُقِيَّة، عن الظواهر الجَمَالِيَّة والأدبيَّة، وعن العادات والتقاليد الاجتماعية ، وعن التعاليم والأحكام المَدَنِيَّة أو الدِينِيَّة البحتة، فحشروا مفردات كل هذه الأمور تحت عنوان الأخلاق، فأفوضى ذلك بهم إلى الخطأ الأكبر ، وهو حكمهم على الأخلاق بأنها أمور اعتبارية نسبية .

الثاني: أنهم جعلوا مفاهيم الناس عن الأخلاق مصدرًا يرجع إليه في الحكم الأخلاقي، مع أنَّ في كثير من هذه المفاهيم أخطاء فادحة، وفسادًا كبيرًا، يرجع إلى تحكُّم الأهواء والشهوات والعادات والتقاليد فيها، ويرجع أيضًا إلى أمور أخرى غير ذلك، والتحريُّ العلمي يطلب من الباحثين أن يتتبعوا جوهر الحقيقة، حيث توجد الحقيقة، لا أن يحكموا عليها من خلال وجهة نظر الناس إليها، فكل الحقائق عرضة لأن يثبتها مثبتون، وينكرها منكرون، ويتشكك بها مُتَشَكِّكون، ويتلاعب فيها متلاعبون، ومع ذلك تبقى على ثباتها، لا تؤثر عليها آراء الناس فيها .

الثالث: اعتمادهم على أفكارهم وضماثرهم فقط، وجعلها المقياس الوحيد الذي تُقاس به الأخلاق .

أما مفاهيم الإسلام فإنها قد ميّزت الأخلاق عما سواها، وميزت السلوك الأخلاقي عن سائر أنواع السلوك الإنساني، فلم تعمم تعميمًا فاسدًا، ولم تدخل في مفردات الأخلاق ما ليس منها، وهي أيضًا لم تعتمد على مفاهيم الناس المختلفة، ولم تتخذها مصدرًا يرجع إليه في الحكم الأخلاقي، وأما العقل والضمير فإنها لم تهملهما وإنما قرنتهما بعاصم يردهما إلى الصواب كلما أخطأ سبيل الحق والهداية والرشاد، وهذا العاصم هو الوحي الذي نزل بدين الله لعباده، وشرائعه لخلقه، وتعاليمه التي لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ لأنها تنزيل من عزيز حكيم، وقد بلغها رسله . أما صورتها المثلى المحفوظة من التغيير فهي ما ثبت في نصوص الشريعة الإسلامية، المنزلة على رسول الله محمد ﷺ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين .

### عوامل ثبات الأخلاق في الإسلام

فمن تبصّر بالأصول العامة للأخلاق في المفاهيم الإسلامية، وتبصر بأن الأخلاق الإسلامية مقترنة بالوصايا والأوامر والنواهي الربانية، وتبصر بأن هذه الوصايا والأوامر والنواهي محفوفة بقانون الجزاء الإلهي بالثواب والعقاب، فإنه لابد أن يظهر له بجلاء أن الأخلاق الإسلامية هي حقائق في ذاتها، وهي ثابتة مادام نظام الكون ونظام الحياة ونظام الخير والشر أمورًا مستمرة ثابتة، وهي ضمن المفاهيم الإسلامية الصحيحة غير قابلة للتغير ولا للتبدل من شعب إلى شعب، ولا من زمان إلى زمان .

أما الأمة الإسلامية فهي أمة واحدة، وهي لا تتواضع فيما بينها على مفاهيم تخالف المفاهيم التي بينها الإسلام، والتي أوضحها في شرائعه ووصاياها .

وإذا رجعنا إلى مفردات الأخلاق الإسلامية وجدنا أن كل واحدة منها - ضمن شروطها وقيودها وضوابطها - ذات حقيقة ثابتة، وهي غير قابلة في المنطق السليم للتحوّل من حسن إلى قبيح ، أو من قبيح إلى حسن. إنّ حسنها حسن في كلّ زمان، وقبيحها قبيح في كلّ زمان، ولا يؤثر على حقيقتها أن تتواضع بعض الأمم على تقبيح الحسن منها، أو تحسين القبيح، تأثراً بالأهواء، أو بالشهوات، أو بالتقاليد العمياء .

إنّ الإسلام يقرر أن حبّ الحقّ وكراهية الباطل فضيلة خلقية، ويقرر أن كراهية الحقّ وحبّ الباطل رذيلة خلقية، فهل يشكُّ أحد سويّ عاقل في أن هذه الحقيقة حقيقة ثابتة غير قابلة للتحوّل ولا للتغير، وإن تواضع على خلافها جماعة ذات أهواء؟! وهكذا سائر الأمثلة الأخلاقية الإسلامية . (١)

### الصفات النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها

كان النبي ﷺ مثلاً أعلى في حسن الخلق قبل بعثته وبعد بعثته فقد كان أحسن الناس خلقاً وأكثرهم محبة ورأفة ورحمة وأصدقهم حديثاً وأوفاهم عهداً وزمة ، من رآه هابه ومن خالطه أحبه ، لقد وصفت

(١) موسوعة الأخلاق مؤسسة الدرر السنية ١٤٣٦ هـ

قريش النبي ﷺ بأنه صادق وأمين " اختصمت قريش في الركن أي القبائل تلي رفعه فقالوا تعالوا نُحْكَمْ أَوَّلَ من يطلع علينا فطلع عليهم رسول الله ﷺ وهو غلامٌ عليه وشاحٌ نَمِرَةٌ فحكّموه فأمر بالركن فوضع في ثوبٍ ثم خرج سيّدُ كلِّ قبيلةٍ فأعطاه ناحيةً من الثوبِ ثم ارتقى هو فرفعوا إليه الركنَ فكان هو يضعه فكان لا يزدادُ على السنِّ إلا رضى حتى دعوهُ الأَمِينُ قبل أن يَنزَلَ عليه الوحي فطفقوا لا ينحرون جُزورًا إلا التمسوه فيدعو لهم فيها " [دلائل النبوة للبيهقي وله شواهد في الصحيح]

ولقد كان السَّبَبُ في زواجه ﷺ بخديجة رضي الله عنها هو الأمانة، فقد تاجر ﷺ في مال خديجة قبل البعثة، وقد انَّصف في تجارته بصدق الحديث، وعظيم الأمانة، فعن ابنِ إسحاق قال " كَانَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ امْرَأَةً تَاجِرَةً ذَاتَ شَرَفٍ وَمَالٍ تَسْتَأْجِرُ الرِّجَالَ فِي مَالِهَا وَتُضَارِبُهُمْ إِيَّاهُ بِشَيْءٍ تَجْعَلُهُ لَهُمْ مِنْهُ وَكَانَتْ قُرَيْشٌ قَوْمًا تَجَارًا فَلَمَّا بَلَغَهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ صِدْقِ حَدِيثِهِ وَعَظِيمِ أَمَانَتِهِ وَكَرَمِ أَخْلَاقِهِ بَعَثَتْ إِلَيْهِ فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ فِي مَالِهَا تَاجِرًا إِلَى الشَّامِ وَتُعْطِيهِ أَفْضَلَ مَا كَانَتْ تُعْطِي غَيْرَهُ مِنَ التَّجَارِ مَعَ غُلَامٍ لَهَا يُقَالُ لَهُ : مَيْسَرَةُ فَقَبِلَهُ مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ وَخَرَجَ فِي مَالِهَا ذَلِكَ وَمَعَهُ غُلَامُهَا مَيْسَرَةُ " (١)

ولمّا عاد إلى مكّة، وقصَّ عليها ميسرة أخبار محمد ﷺ قررت الزواج به .

وعندما جاءه الوحي وخشي على نفسه قالت له أم المؤمنين خديجة : " أَبْشِرْ، فواللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَنْصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ " [متفق عليه]

(١) سيرة ابن إسحق ج ١ ص ٥٩ .

وعندما نَزَلَ قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صَعَدَ النبي ﷺ على الصِّفَا ، فَجَعَلَ يُنَادِي: فلما جاءت قريش قال لهم : " أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تَرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ قالوا : نعم ، ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صَدَقًا . قال : فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ " [ صحيح البخاري ] .

وهكذا شهد له أهله وقومه بالصدق في كل حياته في الصغر والكبر ، وفي كل حالاته في الرضا والسخط ، ومع كل الناس : من يعرف ومن لا يعرف ، ومن آمن به ومن لم يؤمن " ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صَدَقًا " .

ولقد حَدَّدَ الله تعالى الغاية من بعثة النبي ﷺ فقال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وحدد النبي ﷺ الغاية من بعثته فقال " إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ " [ صححه الألباني ] فلا عجب أن تكون الأخلاق قاسم مشترك في أصول الدين وفروعه ، فإذا كان الإسلام عقيدة وشريعة وكانت غاية العقيدة توحيد الله وحسن عبادته فإن غاية شريعة الإسلام هي حسن الخلق .

فلا عجب إذن أن الله تعالى عندما يثني على عبده ورسوله محمد ﷺ يقول ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [ القلم : ٤ ] وأن يجعل أساس قبول الصحابة لدعوة النبي حسن خلقه فهو الصادق الأمين وأن غاية شريعته حسن السلوك والمعاملة ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

[ آل عمران : ١٥٩ ]

وعندما يسأل النجاشي ملك الحبشة جعفر بن أبي طالب عن الدين الذي يؤمن به وهاجر من بلاده في سبيله ما ذكر إلا التوحيد وحسن الخلق فعن أم سلمة هند بنت أبي أمية قالت " دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ سَأَلَهُمْ فَقَالَ مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي قَدْ فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟

قَالَتْ وَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ قَالَ أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجَوَارَ وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِمَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِمَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَقَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ لِتُوحَّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِّمَاءِ وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَشَهَادَةِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَابْتِئَاءَ الزَّكَاةِ - قَالَتْ فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ - فَصَدَّقْنَاهُ وَأَمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا وَأَحَلَّلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَدَبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا ؛ لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ وَرَغِبْنَا فِي جَوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ .

قَالَتْ فَقَالَ النَّجَاشِيُّ هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ نَعَمْ قَالَتْ فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ فَأَفْرَأَهُ فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ

{كهيعص} [ مريم : ١ ] قَالَتْ فَبَكَى وَاللّٰهُ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ وَبَكَتْ أَسَافِقَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ إِنَّ هَذَا وَاللّٰهُ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لِيَخْرُجَ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ انْطَلَقًا قَوْلَ اللَّهِ لَا أَسْلَمْتُمْهُمُ إِلَيْكُمْ أَبَدًا " [ صحيح أحمد ] .

والملاحظ أن جعفر بن أبي طالب ما وصف الجاهلية إلا بالشرك وسوء الخلق وما وصف نبي الإسلام ﷺ إلا بحسن الخلق ، وما جعل غاية دعوته إلا توحيد الله وحسن الخلق .

### خصائص الأخلاق الإسلامية

للأخلاق الإسلامية سمات تميزها عن مفهوم الأخلاق في سائر المذاهب والفلسفات نحاول الآن أن نُجَمِّل أهمها وسوف نعود في فصول تالية لتفصيل القول في بعض هذه الخصائص :

#### أولاً : الأخلاق الإسلامية ربانية المصدر :

الأخلاق الإسلامية مصدرها كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ولا دخل فيها للآراء البشرية إلا للبيان والتوضيح بخلاف النظم الوضعية ، أو الأفكار الفلسفية ؛ لذا اتَّسَمَت الأخلاق الإسلامية بسمات : الخيرية المطلقة ، والخلود الأبدي ، والمناسبة لكل خلق الله في كل زمان ومكان وحال ﴿لَا يَعلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]

يقول ابن القيم " إن الشريعة مبناهَا وأساسها على الحكم ومصالح العباد، في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، وَرَحمة كلها، ومصالح كلها، وَحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن

الرَّحْمَةُ إِلَىٰ ضِدِّهَا، وَعَنِ الْمَصْلَحَةِ إِلَى الْمَفْسَدَةِ، وَعَنِ الْحِكْمَةِ إِلَى الْعَبَثِ فَلَيْسَتْ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَإِنْ أُدْخِلَتْ فِيهَا بِالتَّأْوِيلِ، فَالشَّرِيعَةُ عَدْلُ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَرَحْمَتُهُ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَظِلُّهُ فِي أَرْضِهِ وَحُكْمَتُهُ الدَّالَّةُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ صَدَقِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَمُّ دَلَالَةً وَأَصْدَقُهَا" . (١)

الأخلاق الإسلامية إذن محددة بضوابط الشريعة وليست متروكة لأهواء الناس الحسن في نظر المسلم هو ما حسنة الشرع والقبيح هو ما قبحه الشرع بخلاف من قال الحسن من حسنه العقل ، والقبيح ما قبحه العقل كما زعم المعتزلة ، والعقل إذا غلب عليه الهوى انحرف وحسن القبيح وقبح الحسن ، وانظر إلى أخلاق الجاهلية يتأكد لك ذلك فشرب الخمر والزنا والظلم وواد البنات والإغارة على الأمنين ليس قبيحاً والمفاخرة بالحسب والنسب وغير ذلك .

وَمَنْ لَمْ يَذُذْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ \* يُهْدَمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ  
فالهوى يفسد تحسين العقل إما الشرع الحكيم فمنزه عن الهوى والمؤمن الحق يكون هواه وفق ما شرع الله مصداقاً لقول النبي ﷺ : " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ " [صحيح البيهقي] .

### ثانياً: الشمول والتكامل:

من خصائص الأخلاق الإسلامية: أنها شاملة، ومتكاملة، وهي خاصة منبثقة من الخاصية الأولى، وهي الربانية، وذلك لأنها تراعي

(١) ابن القيم " إغلام الموقعين " ج ٣ ص ١٤ ، ١٥ .

الإنسان، والمجتمع الذي يعيش فيه، وأهداف حياته طبقاً للتصور الإسلامي، تحدد أهداف الحياة وغايتها وما وراءها، وتشمل كافة أنشطة الإنسان وتوجهاته، وتستوعب حياته كلها من جميع جوانبها، ثم هي أيضاً لا تقف عند حدّ الحياة الدنيا.

فالأخلاق في الإسلام عامة لا تشمل المؤمنين فقط بل تشمل جميع خلق الله تعالى : الإنسان ، المؤمن والكافر ، الطائع والعاصي ، الصديق والعدو ، المرأة والرجل ، الصغير والكبير ، الحر والعبد ، القريب والبعيد ، والإنس والجن ، والحيوان ، والطير ، والنبات ، وحتى الجماد . والأخلاق في الإسلام لا تقتصر على الدنيا إنما تشمل الدنيا والآخرة .. أخلاق لا مثيل لها على كثرة ما عَرَفَ الناس من أخلاق .

### ثالثاً: الأخلاق الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان :

لما كانت الأخلاق الإسلامية ربانية المصدر، كانت صالحة لجميع الناس في كلّ زمان، وفي أيّ مكان، نظراً لما تتميز به من خصائص، فلا يطرأ عليها أيّ تغيير أو تبديل بسبب تغير الظروف والأزمان؛ لأنها ليست نتاجاً بشرياً، بل هي وحي من الله تعالى لنبيه.

فالأخلاق الإسلامية ثابتة لا تتغير الزمان أو المكان فبر الوالدين واجب أبدي ، والكرم خلق دائماً والصدق لا تغيره المفاهيم المادية السائدة في المجتمع .

وهذا بخلاف من يزعم بأن الأخلاق نسبية ، وأنها انعكاس للأوضاع المادية والاقتصادية وهي من صنع العقل الجماعي وأنها أي الأخلاق تتغير على الدوام وحسب الظروف وفق الفكر الماركسي .

#### رابعًا: الإقناع العقلي والوجداني :

تشريعات الإسلام توافق العقول الصحيحة، وتتواءم مع الفطر السليمة، وتحصل القناعة الكاملة والانسجام التام مع ما أتت به الشريعة الإسلامية من نظم أخلاقية.

فالأخلاق الإسلامية بها يقنع العقل السليم، ويرضى بها القلب، فيجد الإنسان ارتياحًا واطمئنانًا تجاه الحسن من الأخلاق، ويجد نفرة وقلقًا تجاه السيئ من الأخلاق.

#### خامسًا: المسؤولية :

الأخلاق الإسلامية تجعل الإنسان مسئولاً عما يصدر منه في كل جوانب الحياة، سواء كانت هذه المسؤولية شخصية، أم مسؤولية جماعية، ولا تجعله انكاليًا لا يأبه بما يدور حوله من أشياء، وهذه خاصية من خصائص أخلاقنا انفردت بها الشريعة الغراء.

ونعني بالمسؤولية الشخصية: أن الإنسان مسئول عما يصدر منه عن نفسه إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًا فشر، وفي هذا الصدد يقول الله تعالى : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١]

ويقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِنَّمَا فَاثِمًا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [النساء: ١١١] ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

فهذه الآيات وغيرها تبين لنا مدى المسؤولية التي تقع على عاتق الإنسان عما يصدره منه عنه نفسه. ويقول ﷺ " وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ

من سخطِ الله ، لا يُلقى لها بالاً ، يهوي بها في جهنم " [ صحيح البخاري ]

، يقول ابن حجر في شرح الحديث: " لا يلقي لها بالاً " : أي: لا يتأمل بخاطره، ولا يتفكر في عاقبتها، ولا يظنُّ أنَّها تؤثر شيئاً ، فقبل أن تخرج الكلمة من فمك، أعط نفسك فرصة للتفكير ، هل ما ستقوله يرضي الله أم يغضبه؟ هل تكون عاقبته خيراً أم شراً؟ وطالما لم تخرج فأنت مالکها، فإذا خرجت كنت أسيرها، وإذا كان هذا في الكلام ففي سائر التصرفات من باب أولى.

ونعني بالمسئولية العامة (الجماعية): تلك المسئولية التي تراعي الصالح العام للناس، فلا يكون الرجل إمعة متكاسلاً ...أو سلبياً بل عليه أن يأمر بالمعروف، وأن ينهى عن المنكر " مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ . وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ " [ صحيح مسلم ]

#### سادساً: العبرة بالظاهر والباطن من الأعمال معاً :

أخلاقنا الإسلامية لا تكتفي بالظاهر من الأعمال، ولا تحكم عليه بالخير والشر بمقتضى الظاهر فقط، بل يمتدُّ الحكم ليشمل النوايا والمقاصد، وهي أمور باطنية، فالعبرة إذاً بالنية، يقول رسول الله ﷺ : " إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَرَوَّجُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " [ صحيح البخاري ] .

والنية هي مدار التكليف، وعلى ذلك فالإسلام يراعي نية الإنسان في الحكم على عمله الظاهر.

فالأخلاق الإسلامية تشترط حسن النية لضمان الأجر فالله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الكريم صدق رسول الله ﷺ إذ يقول " إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى " [متفق عليه]

وهذه الأخلاق حينما يتمسك بها المسلم فإنها تعود عليه بكل خير ، فإن الرسالة الإسلامية جاءت من أجل إتمام مكارم الأخلاق ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ ". [رواه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه]

والأخلاق في الإسلام يُجَمَّلُها عقل وعلم وحلم ، قال الشاعر :

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَخْلَاقٌ مَّطَهَّرَةٌ \* \* \* فَالَّذِينَ أَوَّلُهَا وَالْعَقْلُ ثَانِيهَا  
وَالْعِلْمُ ثَالِثُهَا وَالْحِلْمُ رَابِعُهَا \* \* \* وَالْجُودُ خَامِسُهَا وَالْفَضْلُ سَادِيهَا  
وَالْبِرُّ سَابِعُهَا وَالصَّبْرُ ثَامِنُهَا \* \* \* وَالشُّكْرُ تَاسِعُهَا وَاللَّيْنُ بَاقِيهَا (١)  
سابعاً: الرقابة الدينية :

الرقابة: تعني مراقبة المسلم لجانب مولاه سبحانه في جميع أمور الحياة.

وعلى هذا فإنَّ الرقابة في أخلاقنا الإسلامية لها مدلولها المستقلُّ والمختلف عن الرقابة في مصادر الأخلاق الأخرى، حيث تكون رقابة خارجية من الغير تتمثل في رقابة السلطة، والأفراد.

(١) موسوعة الأخلاق مؤسسة الدرر السنية ١٤٣٦ هـ .

أما الرقابة في الإسلام فهي رقابة ذاتية في المقام الأول، وهي رقابة نابعة من التربية الإسلامية الصحيحة، ومن إيقاظ الضمير، فإذا كان المسلم يعلم أن الله معه، وأنه مطلع على حركاته وسكناته، فإنه يكون رقيباً على نفسه، ولا يحتاج إلى رقابة الغير عليه، يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [ الحديد: ٤ ] ، ويقول سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [ طه: ٧ ] ، ويقول عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [ النساء: ١ ] فإذا قرأ المسلم هذه الآيات، وعرف معناها فإنه حينئذ يتيقن أنه إذا تمكن من الإفلات من رقابة السلطة، فإنه لن يتمكن من الإفلات من رقابة الله، وهذا في حد ذاته أكبر ضمان لعدم الانحراف والانسياق إلى الأخلاق المذمومة.

### ثامناً: الأخلاق الإسلامية ترتبط بالجزاء الدنيوي والأخروي :

أخلاق الإسلام ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالجزاء، سواء في الدنيا أو الآخرة، لذا وُجد الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

فالأخيار من الناس: جزاؤهم عظيم في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك ما أعده الله تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢] .

وكذلك ما وعدهم الله به في الدنيا من الجزاء العاجل، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [ الطلاق ٢-٣ ] وقال أيضاً ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠] .

وأما الأشرار من الناس فقد توعدهم الله عزَّ وجلَّ كما في قوله تعالى ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَدُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾

[الحج: ١٩-٢٢]

وأما جزاؤهم في الدنيا فمثاله قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢]

والناس من بعد ذلك يتفاوتون بمدى سبقهم وارتقائهم في سلم الفضائل.

وتفاوت الاستعدادات والطبائع، لا ينافي وجود استعداد عام صالح لاكتساب مقدار ما من أي فرع من فروع الاختصاص، سواء أكان ذلك من قبيل العلوم، أو من قبيل الفنون، أو من قبيل المهارات، أو من قبيل الأخلاق.

وفي حدود هذا الاستعداد العام، وردت التكاليف الشرعية الربانية العامة، ثم ترتقي من بعده مسؤوليات الأفراد بحسب ما وهب الله كلاً منهم من فطر، وبحسب ما وهب كلا منهم من استعدادات خاصة، زائدة على نسبة الاستعداد العام.

ولو أنَّ بعض الناس كان محروماً من أدنى حدود الاستعداد العام الذي هو مناط التكليف، فإنَّ التكليف لا يتوجه إليه أصلاً، ومن سلب منه هذا الاستعداد بسبب ما ارتفع عنه التكليف، ضرورة اقتران التكليف بالاستطاعة، كما أوضحت ذلك نصوص الشريعة الإسلامية.

ووفق هذا الأساس، جاءت التكاليف الشرعية بالتزام فضائل الأخلاق واجتناب رذائلها.

ووفق هذا الأساس، وضع الإسلام الخطط التربوية التي تنفع في التربية على الأخلاق الفاضلة، فالاستعداد لذلك موجود في الواقع الإنساني، وإن اختلفت نسبة هذا الاستعداد من شخص إلى آخر. وفي الإصلاح التربوي قد يقبل بعض الناس بعض فضائل الأخلاق بسهولة، ولا يقبل بعضها الآخر إلا بصعوبة ومعالجة طويلة المدى، وقد تقل نسبة استجابته . (١)

### تاسعاً : الأخلاق الإسلامية غَيْرِيَّة وليست أَنَانِيَّة :

فالإحسان ليس سلعة تجارية للتبادل ، أساعدك علي أن تساعدني فإذا توقفت عن مساعدتك لي أحجمت عن مساعدتك ، فأخلاق الإسلام تدفع المسلم لمساعدة المحتاج دون طلب منه ودون اشتراط مكافأة علي إحسانه ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا ، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا ، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ ، يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا ، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَعَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ

(١) موسوعة الأخلاق مؤسسة الدرر السنية ١٤٣٦ هـ

﴿ أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع ﴾

الْمَلَائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، فِيمَنْ عِنْدَهُ ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ ،  
لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ " [ صحيح مسلم ] .

### الأخلاق والفطرة

وإذا كان الإنسان يتكون من : روح ، وقلب ، وعقل ، ونفس ، وجسد  
فإن هذه المكونات متكاملة رغم اختلافها ، فاختلفاها اختلاف تتوع لا  
اختلاف تضاد .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [ التين : ٤ ] .  
﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [ المؤمنون : ١٤ ] .

إن العقل لا يناقض القلب وكذلك الجسد لا يناقض الروح وإن من رأى  
بينها تناقضاً فأخذ بأحدها وطرح الآخر ضل وتطرف فما التطرف إلا  
الميل لإحدى الكفتين المتوازنتين .

ما معنى هذا ؟

معنى هذا أن الله تعالى خلق الإنسان متوازناً عقلاً وروحاً ونفساً  
وجسداً . ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [ البقرة : ١٣٨ ] .

﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [ الروم : ٣٠ ] .  
" كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ " [ متفق عليه ]

والفطرة هي التوازن بين عناصر الإنسان المختلفة في أمثل صورة لها  
توازن بين والجسد والروح أو بين المادية والرهينة ، وتوازن بين العقل  
والقلب أو بين العلمانية والصوفية .

وكما أن الفطرة الإنسانية متوازنة فإنها خيرة كذلك فمن الأشياء التي يقولها العلماء اليوم أنهم وجدوا أن النظام الافتراضي لدماغ الإنسان هو الصدق! وقد وجدوا ذلك بعد تجارب كثيرة حيث إن الصدق لا يتطلب أي طاقة ، ولكن الكذب يتطلب طاقة كبيرة يصرفها الدماغ أثناء الكذب.

ولو فتشنا داخل كل خلية من خلايا الإنسان نجدها تحوي برنامج يميل بطبيعته إلى الأشياء الحسنة، والأبحاث العلمية تؤكد ذلك من خلال دراستهم لنظام المناعة في الإنسان. ولذلك فإنه لا حجة لأحد يوم القيامة، فكل إنسان في هذا الكون منذ آدم وحتى يرث الله الأرض ومن عليها أودع الله في خلايا دماغه وقلبه معلومات تدله على الله، ولذلك نجد غير المسلمين يتأثرون لكلام القرآن ويحسون كأنهم عادوا للفطرة الطبيعية بعد اعتناقهم الإسلام. (١)

### الوحي والفطرة

ونور الحق الوحي وحده هو الذي يتم نور الفطرة ؛ لأن الشرع الإلهي الإيجابي هو الذي يكمل القانون الأخلاقي الفطري المغروس في النفوس ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] وفي القرآن الكريم يسير العقل والنقل معاً جنباً إلى جنب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق : ٣٧] (٢)

(١) عبد الدائم الكحيل .

(٢) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق في القرآن الكريم " تلخيص وإعادة صياغة وإعادة ترجمة محمد عبد العظيم علي دار الدعوة الطبعة الأولى ١٩٩٦ ص ١١ .

فالعقل كالعين لا بد لها من نور لكي ترى الأشياء وبدون النور لا ترى وإن كانت سليمة ، وكذلك العقل والشرع فالعقل كالعين والشرع هو النور .

ومع أن فطرة الإنسان خيرة فإن ذلك لا يعني أن الإنسان ملاك لا يحسن إلا الخير؟ بل معنى هذا أن الخير يتواءم مع طبيعته الأصلية ؟ وأنه يؤثر اعتناقه والعمل به كما يؤثر الطير التحليق ؟ إذا تخلص من قيوده وأنقاه . (١)

### علاقة الأخلاق بالعقيدة

يقسم العلماء الإسلام الدين إلى : عقيدة وشرعية ومعاملات وأخلاق ، والأخلاق في الإسلام لها منزلة كبرى ومكانة عظيمة فلماذا جعلها العلماء في المرتبة الرابعة بعد العقيدة والعبادة والمعاملات ؟!

الحقيقة أن الدين كله يشتمل على الأخلاق ففي العقيدة أخلاق فאלله تعالى يصف الشرك بالظلم العظيم ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] والقرآن الكريم يصف الكافرين بالظالمين ﴿ الْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا " [رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ]

" الحياء والإيمان قرناء جميعاً ، فإذا رُفِعَ أحدهما رُفِعَ الآخر "

[ صححه الألباني ]

(١) الشيخ محمد الغزالي " خلق المسلم " ص ١٩ .

"الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة . فأفضلها قول لا إله إلا الله . وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان" [ متفق عليه ]

إن العقيدة تنعكس ولا بد على أخلاق معتقدها، فالطريق لتصحيح الأخلاق هو تصحيح العقيدة فالسلوك ثمرة لما يحمله الإنسان من معتقد، وما يدين به من دين، والانحراف في السلوك ناتج عن خلل في المعتقد، فالعقيدة هي الإيمان الجازم بالله تعالى، وبما يجب له من التوحيد والإيمان بملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبما يتفرع عن هذه الأصول، ويلحق بها مما هو من أصول الإيمان، وأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا؛ فإذا صحت العقيدة، حسنت الأخلاق تبعًا لذلك؛ فالعقيدة الصحيحة تحمل صاحبها على مكارم الأخلاق، وتردعه عن مساوئها.

وسيء الخلق لا أيمان له يقول النبي ﷺ : " لَا إِيْمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ " [ صححه الألباني ]

### علاقة الأخلاق بالعبادات

علاقة الأخلاق بالعبادة علاقة وثيقة فإذا كانت العبادة هي الشجرة فإن الأخلاق هي ثمرتها ، وكما أنه لا ثمر بغير شجرة فكذلك لا قيمة لشجرة لا ثمر لها ولا ظل فحسن الخلق بلا عبادة لا يثاب عليه المرء لأنه ترك الأصل وعمل الفرع ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [ الفرقان: ٢٣ ] إي عمدنا إلى ما عملوا من عمل من الخير كصدقة وصلة رحم وقرى ضيف وإغاثة ملهوف في الدنيا فبددناه

كالغبار ولم يثابوا عليه في الآخرة ، وإن انتفعوا به في الدنيا . فالأخلاق الحسنة لكي يقبلها الله تعالى لابد أن تكون ثمرة لإيمان مخلص بالله تعالى ، كما تكون ثمرة لعبادة صحيحة له تعالى ، فمن لم يخلص الإيمان لله ولم يؤد ما فرض الله عليه من عبادة خاب وخسر في الآخرة وإن حسن خلقه في الدنيا وفي ذلك يقول النبي ﷺ " إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ : انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ ؟ ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ " [ صححه الألباني ] .

لذا لا عجب أن جعل القرآن الكريم والأحاديث الشريفة الحكمة من العبادة التخلي عن سوء الخلق والتخلي بحسنها فالصلاة وهي عماد الدين والركن الثاني من أركان الإسلام يجعل الله تعالى الحكمة منها التخلي عن الفحشاء والمنكر والتخلي بذكر الله ومراقبته في السر والعلن ﴿ اٰتْلُ مَا اُوْحِيَ اِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَاَقِمِ الصَّلَاةَ اِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهٰى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّٰهِ اَكْبَرُ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُوْنَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ومن أدّى الصلاة صورة بلا معنى أو تظاهر بأدائها دون أن يتحلى بأخلاقها فكأنه لم يصل وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " رَبِّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنَ الْقِيَامِ السَّهَرِ " [صححه الألباني]

وعن عبد الله بن مسعود قال : " مَنْ لَمْ تَأْمُرْهُ صَلَاتُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا " [ صحيح الطبراني ] .

والزكاة الركن الثالث من أركان الإسلام ليست ضريبة كالتى تفرضها الدول نظير خدمات تؤديها للناس إنما هي عبادة ثمرتها تطهير نفوس

المُزَكِّينَ والمتصدقين والمنفقين من البخل والشح والأثرة، وتطهير الآخذين لها من الفقراء والمساكين والمحتاجين من الحقد والغِل والحسد، كما تُظهر مال الأغنياء مما لحق به من سُخْت فيبارك الله فيه وينميهِ لذلك فلا غرو أن يكون معنى الزكاة في اللغة : الطَّهَارَةُ والصَّلَاحُ كما أن معناها البركة والنِّماءُ . كذلك معناها في القرآن الكريم يقول تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣] .

والمزكي موعودٌ من الله تعالى بالبركة والنِّماءِ نظير تخليه عن البخل وتحليه بالكرم وتخليه عن الأثرة وتحليه بالإيثار يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ : ٣٩] ، ويقول النبي ﷺ " ما نقصَ مالٌ من صدقةٍ " [ صحيح الترمذي ] .

فإذا جئنا إلى الركن الرابع من أركان الإسلام وهو الصوم فإننا نجد الحكمة منهن تزكية النفس وتحليتها فالصوم يزكي نفس الصائم من الرفث والفسوق والغضب ويحليها بتقوى الله وحسن القول والعمل فهو بحق جُنة ( وقاية ) من أمراض النفس والبدن يقول تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] ويقول النبي ﷺ " الصيامُ جُنَّةٌ ، وإذا كان يومُ صوم أحدِكُم فلا يَرْفُثْ ولا يَصُحَبْ ، فإن سابه أحدٌ أو قاتله فليقل : إني امرؤٌ صائمٌ " [ البخاري ] .

والصوم كبح لجماح النفس عن المعاصي وسوء الخلق ؛ فسوء الخلق يفسد الصوم يقول النبي ﷺ : " مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ " [ البخاري ] ويقول

النبي ﷺ " وَرُبَّ صَائِمٍ حَظَّهُ مِنَ الصَّيَّامِ الْجَوْعُ وَالْعَطَشُ " [ صححه الألباني ] وعن عبيد مولى رسول الله ﷺ قال : " أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى عَلَى امْرَأَتَيْنِ صَائِمَتَيْنِ تَعْتَابَانِ النَّاسَ ، فَقَالَ لهُمَا : قِيْنَا ، فَقَاعَتَا قِيحًا وَدَمًا وَلَحْمًا عَبِيطًا ، ثُمَّ قَالَ ﷺ : هَا إِنَّ هَاتَيْنِ صَامَتَا عَنِ الْحَلَالِ وَأَفْطَرْتَا عَلَى الْحَرَامِ " [ رواه البيهقي وابن عساكر بسند ضعيف ]

أما الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج فإن الحكمة منه أخلاقية كسائر العبادات فالحاج لا بد أن يترك الفاحش من القول والقبيح من الفعل والجدال بالباطل ويتحلى بتقوى الله وفعل الخيرات : ﴿ الْحَجُّ أَشْهَرُ مَعْلُومَاتٍ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الحج: ١٩٧] ويقو النبي ﷺ : " مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ ، فَلَمْ يَرْفُثْ ، وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ " [متفق عليه] وهكذا جعل القرآن الكريم والحديث الشريف الحكمة من العبادات والثمرة المرجوة منها هي التحلي بحسن الخلق والتخلي عن سوءه .

ومع ما لحسن الخلق من أهمية عظيمة فإن كثيراً من الناس من يفصل جسد العبادة عن روحها ، يفصل أداء العبادة عن أخلاقها فيسيء الخلق مع الناس ، مما يرد عليه عبادته فلا تقبل ويحرمه ثوابها فلا يثبت وإن قبلت عبادته فسوف يبدد سوء خلقه ما حصل من حسنات بأداء العبادة ويصبح يوم القيامة مفلساً من الحسنات ويدخل النار فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " أَتَدْرُونَ مَا الْمَفْلِسُ ؟ قَالُوا : أَلَيْسَ الْفَلْسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ . فَقَالَ : إِنَّ الْمَفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي ،

يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مالَ هذا ، وسفك دمَ هذا ، وضرب هذا . فيُعْطَى هذا من حسناته وهذا من حسناته . فإن قَنِيَتْ حسناته ، قبل أن يقضي ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطُرحت عليه . ثمَّ طُرِحَ في النَّارِ " [صحيح مسلم] .

### من صور الاستهزاء بآيات الله

سَنَّتْ الشريعة الإسلامية مجموعة من الأحكام . لو أحسن تطبيقها أقيم مجتمع سعيد وقوي ومتضامن ترفرف عليه العدالة والرحمة . ولما كانت أعدل الشرائع تصبح عاجزة بدون الإرادة الطيبة لدى الذين تنطبق عليهم أو المطلوب منهم تطبيقها ، فإن أسوأ المواقف وضرها أن يتظاهر الناس تجاهها بمظهر الورع متمسكين بشكليات أحكامها في حين أنهم يتصرفون بما يؤدي إلى صرف غاياتها فتصبح ظالمة ومنفرة .

وهو ما أطلق عليه القرآن الكريم ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءًا ﴾ [البقرة: ٢٣١] بمناسبة بعض المصالحات الزوجية التي تتسم بسوء نية بقصد سوء استخدام الحق الممنوح للرجال فيجعلون منه أداة كيد لزوجاتهم ، سواء بتأخير قرار الطلاق خلال المدة المحددة لهم ، أو بالنطق به آخر لحظة ، أو يعيدوا زوجاتهم بقصد تطليقهن من جديد ثم إمساكنهن معلقات لمجرد إطالة قيود تسريحهن ومنعهن من عقد زواج جديد .

وتجاه مثل هذه النيات الآثمة يستخدم القرآن في تحذيره ألفاظاً قاسية كقوله تعالى ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءًا وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ

مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ [البقرة: ٢٣١] وكقوله في إنذار الموصين الذين يقصدون حرمان ورثتهم الشرعيين ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [النساء: ١٢] ولهذا سن النبي ﷺ القاعدة الشاملة " لا ضرر ولا ضرار " [ حسنه النووي ] (١)

ومن صور الاستهزاء بآيات الله والإساءة إلى دينه وتشويه صورة المسلمين أن أداء بعض الناس للعبادات يُسيء من أخلاقهم بدلاً من تحسينها حيث يظنون أن مجرد أدائهم للعبادة ضمان لغفران الذنوب مهما عظمت ودخول الجنة مهما أذنبوا فيظنون أن صلاتهم وإن لم تنهم عن الفحشاء والمنكر ، وصيامهم وإن لم يثمر تقوى، وزكاتهم وإن لم تطهرهم ، وصومهم عن الطعام والشراب والجماع وإفطارهم على الرفث والفسوق والسباب ، وحجهم وإن رفثوا فيه وفسقوا وتجادلوا سوف ينجيهم من عذاب الله ويدخلهم جناته ، فيتوهّمون أن مجرد الامتناع عن الطعام والشراب في رمضان أو في يوم عرفة أو عاشوراء يغفر لهم ذنوبهم ، وأن أداءهم الحج وإن كان بمال حرام وقصدوا به وجه الناس يعيدهم كيوم ولدتهم أمهاتهم ، وهم يتجاهلون أن الغاية من بعثة النبي ﷺ هي إتمام محاسن الأخلاق ، وأن الدين حسن الخلق ، وأن الدين المعاملة ، وأن امرأة دخلت النار بسبب إيذائها لجيرانها بلسانها رغم كثرة صلاتها وصيامها وصدققتها " قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فَلَانَةَ تَكْثُرُ مِنْ صَلَاتِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصِيَامِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ هِيَ فِي النَّارِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّ فَلَانَةَ يَذْكُرُ مِنْ قَلَّةِ صِيَامِهَا وَصَلَاتِهَا وَأَنَّهَا

(١) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ١٧٨ .

تتصدَّقُ بالأثوارِ من الأقطِ ولا تُؤذي جيرانها قال هي في الجنة " [صححه الألباني] وأن لا أيمان لمن لا حياء له " الحياء والإيمان قرناء جميعاً ، فإذا رُفِعَ أحدهما رُفِعَ الآخرُ . " [صححه الألباني] .

وأن الكذب يهدي إلى الفجور وأن الفجور يهدي إلى النار " إنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صَدِيقًا ، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا " [متفق عليه] .

والمُتَكَبِّرُ الَّذِي يَنْكُرُ الْحَقَّ وَيَحْتَقِرُ النَّاسَ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ " لا يدخلُ الجنة مَنْ كان في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من كِبَرٍ . قال رجلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يَحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً . قال : إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يَحِبُّ الْجَمَالَ . الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ " [صحيح مسلم] .  
وأن الذي يغش رعيته تحرم عليه الجنة " ما من عبدٍ يسترعيه الله رعيَّةً يموت يومَ يموتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ "

[ صحيح مسلم ]

وأن قاطع الرحم يقطعه الله " قال الله عزَّ وجلَّ : أنا الله ، وأنا الرَّحْمَنُ ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ ، وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ " [قال الألباني صحيح لغيره]

وإن خائن الأمانة لا أيمان له ، وخائن العهد لا دين له : " وأن لا إيمانَ لِمَنْ لا أمانةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ " [صححه الألباني]

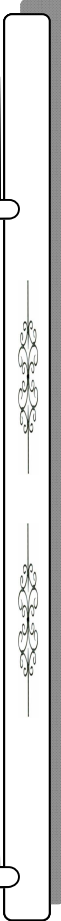
إن حقيقة الأخلاق الإسلامية لا تستهدف فقط إقامة العدالة في الدنيا ، وإنما الغاية كذلك سمو أشخاصنا ، والارتفاع بها فوق المنافع الأرضية

والحياة الحيوانية، وأن الغاية العامة المقصودة من الشرع الإسلامي هي صحة النفس ، فإن تقوى الله تعالى تتركز حولها تقريباً جميع الأحكام القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة . (١)

وفي مقابل إن سوء الخلق يجلب سخط الله ورسوله ويمحو الدرجات ويورد صاحبه النار فإن حسن الخلق يجلب محبة الله ورسوله ويمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات ويدخل صاحبه أعلى الجنان .

\*\*\*

(١) د. مصطفى بن محمد حلمي في تقديمه لكتاب " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق .



## الفصل الثالث

## فضائل الأخلاق الحسنة



## فضائل الأخلاق الحسنة

### مكانة المؤمن حسن الخلق

لم يبشّر النبي ﷺ المؤمن حسن الخلق بدخول الجنة فحسب بل بمكانة عالية فيها فقال ﷺ : " أنا زعيمٌ ببيتٍ في ربضِ الجنّةِ ، وبيتٍ في وسطِ الجنّةِ ، وبيتٍ في أعلى الجنّةِ ، لمن ترك المراءَ وإن كان مُحِقًّا ، وترك الكذبَ وإن كان مازحًا ، وحَسُنَ خُلُقُهُ " [ حسنه الألباني ].

وعندما سئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال: تقوى الله وحسن الخلق، وعن أكثر ما يدخل النار ذكر سوء الخلق الناتج عن الفم كالكذب والغيبة والنميمة والبهاتان ... والخلق السيئ الناتج عن الفرج وهو الزنا . فعن أبي هريرة : " سُئِلَ عن أكثر ما يُدْخِلُ النَّاسَ الجنّةَ ؟ تقوى الله وحسنُ الخُلُقِ وسُئِلَ عن أكثر ما يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ ؟ فقال الفمُ والفرجُ . " [ حسنه الألباني ] .

وحسن الخلق ليس سبباً في محبة الله ورسوله فحسب بل محبة الناس جميعاً : وقد ذكر الله تعالى محبته لمن يتخلق بالأخلاق الحسنة، والتي منها الصبر والإحسان والعدل وغير ذلك، فقد قال الله تعالى : ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [ لبقرة: ١٩٥ ] .

وقال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [ آل عمران: ١٤٦ ] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُفْسِطِينَ ﴾ [المائدة: ٤٢]

عن أسامة بن شريك قال : " كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرُ مَا يَتَكَلَّمُ مِنَّا مُتَكَلِّمٌ إِذْ جَاءَهُ أَنَاسٌ فَقَالُوا مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى قَالَ أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا " [ صححه المنذري ] .

عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : " إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا ، وَإِنْ مِنْ أَبْغَضِكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدِكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَاوِرُونَ وَالْمَتَشَدِّقُونَ وَالْمَتَفِيهِقُونَ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرَاوِرِينَ وَالْمَتَشَدِّقِينَ فَمَا الْمَتَفِيهِقُونَ ؟ قَالَ : الْمَتَكَبِّرُونَ " [ صحيح الترمذي ] .

ومن أحبه الله تعالى حبيب جميع المخلوقات فيه يقول النبي " إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى الْعَبْدَ ، نَادَى جِبْرِيلُ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ فُلَانًا ، فَأُحِبُّهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، فَيُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا ، فَأُحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ " [ متفق عليه ] .

### مكارم الأخلاق أثقل شيء في الميزان يوم القيامة :

عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله : " مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخَلْقِ ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخَلْقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةً صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ " [صحيح الترمذي] .

### الأخلاق الحسنة تضاعف الأجر والثواب :

عن عائشة أم المؤمنين قال قال رسول الله : " إِنْ الْمُؤْمِنَ لَيُذْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةً قَائِمِ اللَّيْلِ ، وَصَائِمِ النَّهَارِ . " [ صححه الألباني ] .

عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ : " إِنَّ الْمُسْلِمَ الْمُسَدَّدَ لِيَذْرُكَ دَرَجَةَ الصَّوَامِ الْقَوَامِ بِآيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لِكَرَمِ ضَرِيَّتِهِ ، وَحُسْنِ خُلُقِهِ " [صحيح أحمد] .

### الأخلاق الحسنة من خير أعمال العباد

عن أنس بن مالك قال : " لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا ذَرٍّ فَقَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى خَصْلَتَيْنِ هُمَا أَخْفُ عَلَى الظَّهْرِ وَأَثْقَلُ عَلَى الْمِيزَانِ مِنْ غَيْرِهِمَا قَالَ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ عَلَيْكَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ وَطَوْلِ الصَّمْتِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا عَمِلَ الْخَلَائِقُ بِمِثْلِهِمَا " [إسناده جيد ورواته ثقات]

### الأخلاق الحسنة تزيد في الأعمار وتعمر الديار:

عن عائشة أم المؤمنين قالت قال رسول الله " إنه من أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجَوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ وَمَنْ حُرِمَ حَظُّهُ مِنَ الرَّفْقِ حُرِمَ حَظُّهُ مِنَ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ " [ قال الألباني إسناده لا بأس به ] .

### الأخلاق الحسنة علامة على كمال الإيمان :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله : " أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ، وَخَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِمْ " [ صحيح الترمذي ] .

عن جابر بن عبد الله قال : " قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْإِيمَانِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ ، قِيلَ فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْمَلُ إِيمَانًا ؟ قَالَ : أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا " [ قال الألباني رجاله ثقات ] .

## مكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية

إن أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفرادُه أن يعيشوا متفاهمين متعاونين ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة.

ولو فرضنا احتمالاً أنه قام مجتمع من المجتمعات على أساس تبادل المنافع المادية فقط، من غير أن يكون وراء ذلك غرض أسمى؛ فإنه لابد لسلامة هذا المجتمع من خلقي الثقة والأمانة على أقل تقدير. فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لابد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك أفراد المجتمع، وتصارعوا، وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار، ثم إلى الدمار.

ولله دَرُّ أحمد شوقي القائل :

وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ \* فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

من الممكن أن تتخيل مجتمعاً من المجتمعات انعدمت فيه مكارم الأخلاق كيف يكون هذا المجتمع؟!

كيف تكون الثقة بالعلوم، والمعارف، والأخبار، وضمان الحقوق لولا فضيلة الصدق؟!

كيف يكون التعايش بين الناس في أمن واستقرار، وكيف يكون التعاون بينهم في العمل ضمن بيئة مشتركة، لولا فضيلة الأمانة؟

كيف تكون أمة قادرة على إنشاء حضارة مثلى لولا فضائل التآخي، والتعاون، والمحبة، والإيثار؟

كيف تكون جماعة مؤهلة لبناء مجد عظيم لولا فضيلة الشجاعة في ردّ عدوان المعتدين وظلم الظالمين، ولولا فضائل العدل والرحمة والإحسان والدفع بالتي هي أحسن؟!

كيف يكون الإنسان مؤهلاً لارتقاء مراتب الكمال الإنساني إذا كانت أنانيته مهيمنة عليه، صارفة له عن كلّ عطاء وتضحية وإيثار؟ لقد دلّت التجارب الإنسانية، والأحداث التاريخية، أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لارتقائها في سلم الأخلاق الفاضلة، ومتناسب معه، وأنّ انهيار القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لانهيار أخلاقها، ومتناسب معه، فبين القوى المعنوية والأخلاق تناسب طردي دائماً، صاعدين وهابطين.

وذلك لأنّ الأخلاق الفاضلة في أفراد الأمم والشعوب تمثل العقود الثابتة التي تعقد بها الروابط الاجتماعية، ومتى انعدمت هذه العقود أو انكسرت في الأفراد لم تجد الروابط الاجتماعية مكاناً تتعقد عليه، ومتى فقدت الروابط الاجتماعية صارت الملايين في الأمة المنحلة عن بعضها مزودة بقوة الأفراد فقط، لا بقوة الجماعة، بل ربما كانت القوى المبعثرة فيها بأساً فيما بينها، مضافاً إلى قوة عدوها.

وإذا كانت الأخلاق في أفراد الأمم تمثل عقود الترابط فيما بينهم، فإن النظم الإسلامية الاجتماعية تمثل الأريطة التي تشدُّ العقود إلى العقود، فتكون الكتلة البشرية المتماسكة القوية، التي لا تهون ولا تستخذي . (١)

\*\*\*

## الفصل الرابع

## الالتزام الأخلاقي



## الالتزام الأخلاقي

أي مذهب أخلاقي جدير بهذا الاسم لا بد من أن يستند على فكرة الإلزام ؛ لأنها الأساس الجوهرى والمحور الذى يدور حوله النظام الأخلاقى كله ، وغياب فكرة الالتزام يؤدي إلى انعدام روح الحكمة العملية ومادتها . لأنه إذا انعدم الإلزام انتفت المسئولية ، وبانتفاء المسئولية لا تتحقق العدالة ، بل يسود الاضطراب والفساد والفوضى - لا من حيث الناحية الواقعية فحسب - ولكن من الناحية القانونية . (١)

### سلم القيم الإيجابية والسلبية

إن الالتزام الأخلاقى فى القرآن الكريم مشروط بشرطين : أن يكون العمل المستهدف فى حدود الاستطاعة البشرية بوجه عام ( أى خاضعاً لإرادة الإنسان ) وأن يكون ميسر التنفيذ فى الحياة الواقعية . ولا يكفى أن يتصف بأنه ممكن وعملي ليدخل فى عداد الواجبات . وإنما سوف نرى سلماً من القيم الإيجابية والسلبية ، مرتباً ترتيباً دقيقاً وحكيماً .

فإذا تجاوزنا الواجبات الأولية التى لا خلاف حولها ( مثل الصدق وأداء الأمانة ونجدة الغير ) سيظل أمام الفضيلة " الخلاقة " و " البناءة

(١) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق فى القرآن الكريم " تلخيص وإعادة صياغة وإعادة ترجمة محمد عبد العظيم علي دار الدعوة الطبعة الأولى ١٩٩٦ ص ٨

" ميدان واسع لدرجات لا نهاية لها من الأعمال " الممكنة " و " العملية " و " العملية " فهل نلتزم بها جميعاً . أم نكتفي ببعضها وبعبارة أخرى هل " الخير " و " الواجب " فكرتان متطابقتان ؟ ألا توجد فوق الواجب درجات متصاعدة في الثواب ويجوز التغاضي عن بعضها دون ارتكاب عمل غير أخلاقي ؟ وإذا استفتينا الضمائر الفردية عنها فسوف تنتوع الإجابات ، فبينما النفوس ذات العزيمة تضع واجبها في أعلى درجات الكمال وتجمع بذلك بين الواجب والخير ، نجد العامة تتوقف عند أقل سمواً وتحدد واجبها عند النحو الأدنى .

ونتوجه للذين يوسعون دائرة الواجبات حتى تضم كل مجالات الخير ويرغبون أن يجعلوا أعلى درجات الكمال في كل مجال ، واجبات إلزامية ملحة ، ونسألهم هل يعتبرون مجموع هذه الكمالات واجباً على كل فرد ؟ (وإن كان فوق الطاقة البشرية) أم يتركون للفرد حرية اختيار مجال الكمال الذي يريده ؟ (وإذا استنفدت إحدى القيم جهد الإنسان كله فأهمل سائر القيم الأخرى هل يرون في هذا إشباعاً لحاجة أخلاقية ؟).

إن الكائن البشري مركب من علاقات متعددة ، منها الحيوية والشخصية والأسرية والاجتماعية والإنسانية والريانية .. أي أنها مجموعة متكاملة ومترابطة ومتماسكة كلها مؤهلة للتطور والتقدم ، وليس من الممكن إهمال إحداها إلا على حساب زعزعة أو تشويه أو تمزيق " أحسن التقويم " الذي خلق الله الكائن الإنساني عليه .

والحاسة الأخلاقية تقتضي ارتقاء كل مجموعة ككتلة واحدة والسمو بها جميعاً في نفس الوقت حتى مستوى معين إذ " يتحتم على الإنسان أن

يمارس كل القيم بلا استثناء قبل أن يتخصص في إحداها " وهو المفهوم الإسلامي للواجب " إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ " [ البخاري ] (١)

على الإنسان أن يؤدي الفروض الواجبة عليه وهذه الفروض تشمل جميع كيان الإنسان : الروح ، والقلب ، والعقل ، والنفس ، والبدن ، كما أنها تشمل أصحاب الحقوق علينا : ربك ، وأهلك ، وزجك ، ونفسك ، و... أو كما قال د. عبد الله دراز تلبي جميع الجوانب الربانية والإنسانية والاجتماعية ، والأسرية ، والحيوية ... فالصلوات الخمس ، وصوم رمضان ، والزكاة ، والحج ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم ، ونفع الناس وحسن معاملتهم ، وتقديم خدمات للمجتمع ، والقيام بواجبات الأسرة : نفقة ، ورعاية ، ومودة ورحمة ، والقيام بحق البدن : من راحة وترويح ورعاية صحية ... فإذا أدَّى الإنسان ما عليه من واجبات وفروض إلهية وأراد أن يستزيد من أعمال البر والخير فإنه يتقرب إلى الله بأداء بعض السنن والمندوبات بحيث لا تُخِلُّ بالفروض والواجبات ، فالفروض هي الحد الأدنى الذي يجب على الإنسان فعله ، والمحرمات هي الحد الأدنى الذي يجب الانتهاء عنه وهناك مجالات للترقي بفعل السنن واجتتاب المكروهات كل بقدر إيمانه وحبه لله تعالى ، وبقدر طاقته وقدرته .

يقول عبد الله دراز : " بين المفروض والمُحَرَّم يوجد غير المُحَرَّم وحتى في المفروض يفرّق القرآن الكريم بين ما هو " واجب رئيسي "

(١) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ٢٦ ، ٢٧ .

و " وجبات أخرى " ويليها " الأعمال المتدرجة صعوداً في الثواب " .  
أما في " المحرم فيحدد القرآن الكريم " الكبائر " وبعدها السيئات الأخرى ،  
الكبير منها والصغير .. وعلى نفس المنوال ، يوضح درجتين في  
الأعمال غير المحرمة منها " المسموح به " و " المتغاضى عنه " .

وأن أن أنتساءل عما إذا كانت أدق العقول وقدرها على التتبع ،  
تستطيع أن تضيف شيئاً إلى هذا التدرج في القيم . ولقد حاولنا دون  
جدوى أن نعثر على ثغرة .

وكلمة عن مغزى هذا التدرج فيما يختص بكل من " المباح " و  
" المَعْفُو عنه " نقول إن المباح في القرآن يتعلق بأعمال لا تدخل في  
مجال الأخلاق .

أما المَعْفُو عنه فيجب أولاً ألا نعتبره رخصة التهاون في أخلاق الأفراد  
أو ميولهم ونزواتهم . والا فسوف يعد ذلك إنكاراً للأخلاق ذاتها ، ولهذا  
نجد القرآن يقف موقفاً لا يتزعزع ، ويحثنا على أن ننتصر بأي ثمن  
على ميولنا ورغباتنا الجامحة وعدم الانصياع لها . ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ  
فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ ص: ٢٦ ] ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾  
[ النساء: ١٣٥ ] ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [ القصص: ٥٠ ] فعلينا  
أن نختار إما طاعة الله وإما اتباع الهوى . ولهذا يكون " المَعْفُو عنه " من  
أجل مراعاة الواقع المحسوس الذي يتم فيه نشاطنا دون أن نبلغ حد  
إلغاء جهدنا وإعفاء أنفسنا من الواجب ، وهكذا نجد أن لطف الشريعة لا  
يستهدف تقليل الجهد وإنما ترشيده أي إرساءه على أساس عقلي . (١)

(١) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ٢٩ ، ٣٠ .

## علاقة الأخلاق بأصحاب الحقوق علينا

أصحاب الحقوق علينا أربعة أقسام : الله تعالى ، والناس ، والأحياء غير الإنسان ، والنفس .

القسم الأول : ما يتعلّق بوجوه الصلة القائمة بين الإنسان وخالقه .. والفضيلة الخلقية في حدود هذا القسم تفرض على الإنسان أنواعًا كثيرة من السلوك الأخلاقي: منها الإيمان بالله تعالى ؛ لأنّه حق، ومنها الاعتراف له بكمال الصفات، والأفعال، ومنها تصديقه فيما يخبرنا به ؛ لأنّ من حق الصادق تصديقه، ومنها التسليم التام لما يحكم علينا به؛ لأنّه هو صاحب الحق في أن يحكم علينا بما يشاء .

فكل هذه الأنواع من السلوك أمور تدعو إليها الفضيلة الخلقية.

أما دواعي الكفر بالخالق سبحانه وتعالى بعد وضوح الأدلة على وجوده فهي حتمًا دواع تستند إلى مجموعة من رذائل الأخلاق، منها الكبر، ومنها ابتغاء الخروج على طاعة من تجب طاعته، استجابة لأهواء الأنفس وشهواتها، ومنها نكران الجميل وجحود الحق...

القسم الثاني: ما يتعلّق بوجوه الصلة بين الإنسان وبين الناس الآخرين .

وصور السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم معروفة و ظاهرة: منها الصدق، والأمانة، والعفة، والعدل، والإحسان، والعفو، وحسن المعاشرة، وأداء الواجب، والاعتراف لذي الحق بحقه، والاعتراف لذي المزية بمزيته والمواساة والمعونة، والجود، وهكذا إلى آخر جدول فضائل الأخلاق التي يتعدى نفعها إلى الآخرين من الناس.

أما صور السلوك الأخلاقي الذميمة في حدود هذا القسم فهي أيضاً معروفة وظاهرة: منها الكذب، والخيانة، والظلم، والعدوان، والشح، وسوء المعاشرة، وعدم أداء الواجب، ونكران الجميل، وعدم الاعتراف لذي الحق بحقه، وهكذا إلى آخر جدول رذائل الأخلاق التي يتعدى ضررها إلى الآخرين من الناس.

القسم الثالث : ما يتعلّق بوجوه الصلة بين الإنسان والأحياء غير العاقلة ( الحيوان والطير والنبات ) .

ويكفي أن تتصور من السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم، الرحمة بها، والرفق في معاملتها، وتأدية حقوقها الواجبة. وفي هذا يقول الرسول ﷺ " بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ ، فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنِّي فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ ، فَسَقَى الْكَلْبَ ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ ، فَغَفَرَ لَهُ " قالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا ؟ فَقَالَ : " فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ " [ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ] .

وقوله في حرمة قطع الأشجار والنباتات عبثاً وظلماً ودون منفعة عامة " مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً ( شجرة النَّبَق ) صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ " .

[ صحيح أبي داود والنسائي ]

أما الظلم الأحياء غير العاقلة والقسوة وحرمانها من حقوقها؛ فهي من قبائح الأخلاق، وفي هذا يقول الرسول ﷺ " عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا ، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ " [ متفق عليه ] .

القسم الرابع : ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان ونفسه .

وصور السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم كثيرة : منها الصبر على المصائب، ومنها الأناة في الأمور، ومنها النظام والإتقان في العمل، ومنها عدم استعجال الأمور قبل أوانها، وكل ذلك يدخل في حسن إدارة الإنسان نفسه، وحكمته في تصريف الأمور المتعلقة بذاته .

وصور السلوك الأخلاقي الذميمة في حدود هذا القسم تأتي على نقيض صور السلوك الأخلاقي الحميد .

ومن ارتكب الأخلاق الذميمة يظلم نفسه قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩] أي: ظالمين لأنفسهم، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ [الطلاق : ١] .

وانتهاك العبد حق الله ، وحق الناس ، وحق الأحياء غير العاقلة فإنه في الحقيقة يظلم نفسه .

فالشرك بالله ظلم للنفس ﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] لأن المشرك يعرض نفسه للخلود في النار .

ومن ظلم النفس بمنع الزكاة : احتباس المطر عنه من السماء، ونزع البركة من المال وتعريضه للآفات ، ومن ظلم النفس بانتشار الزني والفواحش: ظهور الأوبئة والأمراض الخطيرة .

ومن ظلم نفسه بتعاطي السموم كالخمر والمخدرات، جرَّ على نفسه بلاءً عظيمًا وأمراضًا فتَّاكة، وجنى على مجتمعه بلاءً كبيرًا .

ولقد استعاذ النبي ﷺ من خصال الشرِّ؛ روى ابن ماجه بسنده إلى عبد الله بن عمر قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: " يَا مَعْشَرَ

المُهَاجِرِينَ ! خَمْسُ خِصَالٍ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ :  
لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا ؛ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَ  
الْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا ، وَلَمْ يَنْقُصُوا  
الْمِكْيَالَ وَ الْمِيزَانَ إِلَّا أَخَذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُؤْنَةِ وَ جَوْرِ السُّلْطَانِ ، وَلَمْ  
يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَوْلَا الْبِهَائِمُ لَمْ  
يُمْطَرُوا، وَلَا نَقَضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَ عَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ  
غَيْرِهِمْ ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ تَحْكَمْ أَيْمَتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ،  
وَيَبْخَيْرُوا فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ؛ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهَمَ بَيْنَهُمْ " [ صححه الألباني ]  
إِنْ مِنْ تَحَمَّلَ أَمَانَةَ الْعَمَلِ - أَيًّا كَانَ هَذَا الْعَمَلُ - ثُمَّ مَالَتْ نَفْسُهُ  
الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ ، فَفَضَّلَ رَغْبَةَ دُنْيَوِيَّةٍ ، وَمَصْلَحَةَ ذَاتِيَّةٍ ، فَلَمْ يُوَدِّ الْعَمَلَ عَلَى  
الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ ، فَاخْتَلَسَ الْوَقْتُ أَوْ الْجَهْدُ أَوْ الْمَالُ ، وَلَمْ يِرَاعَ مَا التَزَمَ  
بِهِ - فَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ .

والأب والأم ظالمان لأنفسهما إذا لم يحسنا تربية أبناءهما وتعليمهم ،  
والمرأة ظالمة لنفسها إذا تهاونت في فرضٍ عليها أو قصرت في حقِّ  
زوجها ، أَوْ عَرَّضَتْ نَفْسَهَا لِلْفِتْنَةِ ، وَالْبَائِعُ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ إِذَا غَشَّ فِي  
سَلْعَتِهِ .

وَكُلُّ مُقْصِرٍ فِيمَا وَكِّلَ إِلَيْهِ مِنْ أَعْمَالٍ يُسْأَلُ عَنْ ذَلِكَ ؛ قَالَ تَعَالَى :  
﴿ وَيَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ  
سَبِيلًا ﴾ [ الفرقان : ٢٧ ] . (١)

(١) على حامد " هل يظلم الإنسان نفسه ؟ " موقع الألوكة .

## أقسام التشريع الإسلامي

إن الشرع الحكيم فيه المأمور به وهو درجات ففي مقدمتها أركان الإسلام الخمس، وهناك فرائض أقل من هذه الأركان تتدرج حتى تنتهي بالمندوبات التي تنتهي تدريجياً بالمباح، وهناك سلم المنهي عنه الذي في مقدمته الكبائر وهناك محرمات أقل من الكبائر تتدرج حتى تنتهي بالمكروهات التي تنتهي تدريجياً بالمباح.

وهذا بيان قوله ﷺ : " إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا وَنَهَى عَنْ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رُخْصَةً لَكُمْ لَيْسَ بِنِسْيَانٍ فَلَا تَبْخَثُوا عَنْهَا. " [ حديث حسن، رواه البيهقي وغيره ] .

وهذا الحديث النبوي الشريف، كما قال العلماء، أجمع حديث اشتمل على جوانب التشريع الإسلامي، ولا يوجد حكم يخرج عن نطاقه؛ لأنه جمع الفرائض والحدود والمنهي عنه والمباح، وهذه هي أقسام التشريع.

ويطبق ابن القيم خلق الصبر على أقسام التشريع فيقول : " الصبر ينقسم إلى الأحكام الخمسة فالواجب الصبر على فعل الواجب وترك المحرم وتحمل المصيبة والمندوب الصبر على فعل المندوب وترك المكروه والمحرم الصبر على نحو ترك الأكل حتى يموت والصبر على نحو حية أو سبع أو غرق أو كافر يقتله والمكروه الصبر على نحو قلة الأكل جدا وعن جماع حليلته إذا احتاجت والمباح على ما خير بين فعله وتركه " .

## يسر الإسلام وتنطع بعض الدعاة

كثير من الوُعَاظ الْمُتَنَطِّعِينَ يجعلون أمور الدين في مرتبة واحدة فلبس النقاب كفرضية الصلاة، وخلق اللحية كشرب الخمر، والرسام

والمصور كعابد الأوثان ، وسماع الأغاني والموسيقى كالزنا والفجور إن تركيزهم على مثل هذه الأمور وكثرة الحديث عنها والاستشهاد عليها من أقوال بعض السلف يجعل حلق اللحية وسماع الأغاني وسفور الوجه كترك الصلاة وشرب الخمر والزنا مع أن أمور الدين ليست على درجة واحدة " بل متفاوتة بيقين في منزلتها من الدين كما أن في داخل كل منها ما يعد من الأصول وما يعد من الفروع ما هو من الأركان ، وما هو من المكملات ما هو من الفرائض ، وما هو من النوافل ما هو قطعي وما هو ظني ما هو متفق عليه وما هو مختلف فيه ما هو في مرتبة الضروريات وما هو في مرتبة الحاجيات وما هو في مرتبة التحسينات على حد تقسيم الأصوليين وهذا أمر جد خطير حتى يأخذ كل عمل مرتبته وتأخذ كل مرتبة حكمها ولا نذيب الفواصل بين الأعمال بعضها وبعض كما يفعل بعض الناس الذين يعاملون الفروع معاملة الأصول ، والسنن معاملة الفرائض والمكروهات كالمحرمات والأمور المختلف فيها كالأمور المتفق عليها والظنّيات كالقطعيات ولهذا تضطرب أحكامهم ويختلط عليهم الأمر ويبعدون عن سواء السبيل " (١)

ومن حقائق الحياة أن الناس يتفاوتون في هذه القضية فمنهم المتساهل الميسر ومنهم المتشدد المعسر وقد كان في الصحابة المترخص كابن عباس والمتشدد كابن عمر رضى الله عنهما . (٢)

لكن هؤلاء المنتطّعين يأبون إلا أن يفتوا الناس بآرائهم المتشددة ويلزموهم بها وكان عليهم إما أن يبينوا للناس بشيء من اليسر أشهر

(١) د يوسف القرضاوي " نحو وحدة فكرية " ص ١٠٩ .

(٢) د . يوسف القرضاوي " الصحوّة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٣٧ .

الآراء وَيَدْعُوا النَّاسَ تَخْتَارَ مَا تَطْمَنُّ إِلَيْهِ قُلُوبُهُمْ ، أَوْ يَكْتَفُونَ بِذِكْرِ  
الرَّأْيِ الْأَيْسَرِ إِقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ ﷺ الَّذِي مَا خَيْرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا وَاخْتَارَ  
أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ أَثَمًا .

هؤلاء الْمُتَنَطِّعُونَ يَخْلُطُونَ بَيْنَ مَا هُوَ مُقَدَّسٌ - وهو القرآن الكريم  
وصحيح السنة - وما هو اجتهاد بشري ، فيخلطون مثلاً بين القرآن  
الكريم وتفسير بعض علماء السلف له فكلاهما مقدس لا يجوز الخروج  
عليه . فإذا قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ  
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ  
مُّهِينٌ ﴾ [ لقمان : ٦ ] فيكون مراد الله تعالى بلهو الحديث هو " الغناء  
" كما قال بعض السلف ومن قال بغير ذلك فقد خالف كتاب الله !  
وبهذا أصبح بعض كلام السلف هنا مقدساً كالقرآن بالطبع إذا وافق  
هوى السلفي النصي الحرفي إما إذا خالف هواه في موضع آخر كتفسير  
ابن عباس وغيره من صحابة رسول الله ﷺ للمستثنى في قوله تعالى  
﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [ النور : ٣١ ] بالوجه والكفين  
لم يلتفتوا إليه بل يجعلون رأى ابن مسعود هو الرأى المُقَدَّس في هذه  
القضية وهكذا أصبح المُقَدَّس من آراء السلف ما يقصدونه هم حسب  
هواهم .

وبالنسبة للسنة النبوية فليس كل أمر للنبي ﷺ فريضة كما أنه ليس  
كل نهى له ﷺ تحريماً ؛ " فالواجب شرعاً هو ما طلب الشارع فعله من  
المكلف طلباً حتمياً بأن اقترن بما يدل على تحريم فعله كما إذا كانت  
صيغته نفسها تدل على التحريم أو دلَّ على تحريم فعله ترتيب عقوبة

على تركه أو أية قرينة شرعية أخرى " (١) كالصلاة ، والصيام ، وبر  
الوالدين ، والصدق ، وأداء الأمانة ....

أما الْمُحَرَّم فهو " ما طلب الشَّارِعُ الكَفَّ عن فعله حتماً بأن تكون  
صيغة الكَفِّ نفسها دالة على أنه حتم كقوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ  
الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ [النساء : ٣] وقوله  
تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٥١] أو  
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ ﴾ [النساء : ١٩] أو يكون النهي عن  
فعله مقترناً بما يدل على أنه حتم مثل ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ  
فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] (٢)

إن بعض الْمُتَنَبِّهِينَ يريدون أن يشرعوا للناس ويلزمونهم بما لم يلزمهم  
به الله تعالى فيجعلون السنن فرائض ، والمكروهات محرمات .  
والمفروض ألا نلزم الناس إلا بما ألزمهم الله تعالى به جزماً وما زاد  
على ذلك فهم مخيرون فيه إن شاءوا فعلوا وإن شاءوا تركوا .

يقول تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ  
وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾  
[الشورى : ٢١] أي ابتدعوا لهم من الدين ما لم يباح الله لهم ابتداعه .  
" ولطالما قلت : إن حسبنا من المسلم في هذا العصر أن يؤدي  
الفرائض ويجتنب الكبائر لنعتبره في صف المسلمين وأنصاره ما دام  
ولاؤه لله ورسوله وإن ألمَّ ببعض الصغائر من المحرمات فعنده من

(٢) عبد الوهاب خلاف " علم أصول الفقه " ص ١٠٥ .

(٣) نفسه ص ١١٣ .

الحسنات مثل : الصلوات الخمس ، وصلاة الجمعة ، وصيام رمضان ، وغيرها ما يكفر عنه الصغائر ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [ هود : ١١٤ ] ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [ النساء : ٣١ ] (١)

عن طلحة بن عبيد الله " أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَائِرَ الرَّأْسِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ ، فَقَالَ : الصَّلَوَاتِ الْخُمْسَ إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ شَيْئًا . فَقَالَ : أَخْبِرْنِي مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ ، فَقَالَ : شَهْرُ رَمَضَانَ إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ شَيْئًا . فَقَالَ : أَخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الزَّكَاةِ ، فَقَالَ : فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَائِعَ الْإِسْلَامِ ، قَالَ : وَالَّذِي أَكْرَمَكَ ، لَا أَتَطَّوَّعُ شَيْئًا ، وَلَا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ شَيْئًا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ ، أَوْ : دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ " [ متفق عليه ] .

وهذا التشدد في إلزام الناس بما لم يلزمهم به الله تعالى لا يطيقه كل الناس ويوقع كثير من الناس في الحرج فهم لا يقدرُونَ على القيام به والمنتطعون لا يكفون عن إلزامهم به . ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [ الحج : ٧٨ ]

أي ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً، ولهذا قال ﷺ : "بعثت بالحنيفة السمحة" (٢)

ومما يؤخذ عليهم كذلك تحريمهم لكثير من المباحات يقطعون فيها بالتحريم مع أن التحريم لا يكون إلا بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة،

(١) د. يوسف القرضاوى " الصحوۃ الإسلامية بين الجود والتطرف " ص ٤٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٥٥ .

وهم لا يعلمون أن من حَرَّمَ ما أحل الله كمن أحلَّ ما حرم الله يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ لِمُعْتَدِينَ ﴾ [ المائدة : ٨٧ ] .

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رهطٍ من أصحاب النبي ﷺ قالوا : نَقْطَعُ مذاكيرنا ، ونترك شهوات الدنيا ، ونسبح في الأرض كما يفعل الرهبان ! فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك ، فقالوا : نَعَمْ ، فقال النبي ﷺ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي ، وَأَنَا ، وَأُنكِحُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ أَخَذَ بِسُنَّتِي فَهُوَ مِنِّي ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْ بِسُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي " [رواه ابن أبي حاتم] وفي الصحيحين عن أنس قال : " جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَرْوَاحِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُوهَا وَقَالُوا : أَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ . قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا . وَقَالَ الْآخَرُ : وَأَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ أَبَدًا وَلَا أَفْطِرُ . وَقَالَ الْآخَرُ : وَأَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا . فجاء رسولُ الله ﷺ إليهم ، فَقَالَ : " أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لأُخْشَاكُمْ اللَّهَ ، وَأَتَّقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي " [ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ] .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ يعنى بالطيبات: اللذيات التي تشتهيها النفوس وتميل إليها القلوب، فتمنعوها إياها، كالذي فعله القسيسون والرهبان، فحرّموا على أنفسهم النساء والمطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة، وحبس في الصوامع بعضهم أنفسهم، وساح في الأرض بعضهم. يقول تعالى ذكره: فلا تفعلوا أيها المؤمنون كما فعل أولئك، ولا تعتدوا حد الله الذي حد لكم فيما أحل لكم

وفيما حرم عليكم فتجاوزوا حده الذي حده، فتخالفوا بذلك طاعته، فإن الله لا يحب من اعتدى حده الذي حده لخلقه فيما أحل لهم وحرم عليهم<sup>(١)</sup>

﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ لِمُعْتَدِينَ﴾ قيل : المعنى لا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله فالنهيان على هذا تضمننا الطرفين؛ أي لا تشددوا فاحرموا حالاً، ولا تترخصوا فتحلوا حراماً؛ قاله الحسن البصري. وقيل: معناه التأكيد لقوله: "احرموا"؛ قاله السدي وعكرمة وغيرهما؛ أي لا تحرموا ما أحل الله وشرع<sup>(٢)</sup>

ويقول تعالى أيضاً : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦] .

قال ابن وهب قال مالك: لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام، ولكن يقولوا إياكم كذا وكذا، ولم أكن لأصنع هذا. ومعنى هذا: أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من الأعيان ، إلا أن يكون البارئ تعالى يخبر بذلك عنه . وما يؤدي إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول : إني أكره كذا. وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى.<sup>(٣)</sup>

ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعي، أو حل شيئاً مما حرم الله أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه، ثم

(١) تفسير الطبري ج ١٠ ص ٥٢٣ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٦٣ .

(٣) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٩٦ .

توعد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ﴾<sup>(١)</sup> أي في الدنيا ولا في الآخرة ؛ أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان : ٢٤] " (١)

وما أكثر المباحات التي حرّمها الْمُتَنَطِّعُونَ ! وما أكثر المندوبات التي فرضها المتفقهون ! ولقد كثرت تلك الكتيبات وانتشرت بين أيدي الشباب التي تحرم العادات كلبس " الدبلة " للخطب والمتزوج ! والاحتفال بالمولد النبوي حتى بذكر الله وقراءة القرآن ! والاحتفال بأعياد الميلاد وإن كانت خالية من الإسراف والبذخ ! والاحتفال بعيد الأم وإن كان فيه صلة رحم مقطوعة ! وتحريم جميع أنواع الموسيقى والغناء حتى ولو كان دفاً يعلن به النكاح ! وتحريم حلق اللحية أو أخذ شيء منها ! وتحريم التصوير وإن كانت صورة في بطاقة شخصية أو جواز سفر ! وتحريم تعليم المرأة وإن كان ولا بد فتتعلم العلوم الدينية فقط وما عدا ذلك فحرام ! وتحريم كشف المرأة وجهها ، وإن كان لضرورة تقتضيها حاجة العمل ! ...

وأصبح التنافس بين هؤلاء الكتاب المتتبعين على البراعة في تحريم المباحات وفرض المندوبات !!

وهذا مخالف لقول الله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] وقوله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٨] وقوله تعالى ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : ٧٨] .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٦٠٩ .

كما أن هذا الفكر المتشدد مُخالف لسنة النبي الذي قال إن الدين يسر بل إنه وصف أمثال هؤلاء بالْمُتَنَطِّعِينَ ودعا عليهم بالهَلَاك .

فعن ابن مسعود أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : " هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ " قالها ثلاثاً "

[ رواه مسلم ]

" الْمُتَنَطِّعُونَ " : المتعمقون المشددون في غير موضع التشديد .

وعن أبي هريرة عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : " إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينُ إِلَّا غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْعَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ " [ رواه البخاري ] .

وفي رواية لَهُ : " سَدِّدُوا وَقَارِبُوا ، وَاعْدُوا وَرُوحُوا ، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ ، الْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبَلُّغُوا " وقول النبي " إِلَّا غَلَبَهُ " : أي غَلَبَهُ الدِّينُ وَعَجَزَ ذَلِكَ الْمُشَادُّ عَنْ مُقَاوَمَةِ الدِّينِ لِكثَرَةِ طُرُقِهِ .

معنى الحديث اسْتَعِينُوا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْأَعْمَالِ فِي وَفَتْ نَشَاطِكُمْ وَفَرَاغِ قُلُوبِكُمْ بَحِيثُ تَسْتَلْذُونِ الْعِبَادَةَ وَلَا تَسْأَمُونَ وَتَبْلُغُونَ مَقْصُودَكُمْ ، كَمَا أَنَّ الْمُسَافِرَ الْحَاقِقَ يَسِيرُ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ وَيَسْتَرِيحُ هُوَ وَدَابَّتُهُ فِي غَيْرِهَا فَيَصِلُ الْمَقْصُودَ بِغَيْرِ تَعَبٍ .

### إباحة النبي ﷺ الترويح عن النفس

وكما أن بعض الوعاظ يرهقون الناس بالإكثار من السنن والمندوبات حتى وإن كانت على حساب القيام بحقوق العمل والزوجة والأولاد والبدن فإنهم يحرمون عليهم كل لهو وإن كان مباحاً وكل ترويح عن النفس وإن كان فيه نفع ، وهذا مخالف لسنة النبي ﷺ وصحبه الكرام فعن أبي ربيعة حنظلة بن الربيع الأسيدي الكاتب أحد كتّاب رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ :

لَقِينِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قُلْتُ : نَافِقَ حَنْظَلَةُ !  
قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ ؟! قُلْتُ : نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا  
بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا  
الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى  
مِثْلَ هَذَا ، فَاِنْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . فَقُلْتُ :  
نَافِقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " وَمَا ذَاكَ ؟ " قُلْتُ :  
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ كَأَنَّا رَأَيْ الْعَيْنَ فَإِذَا  
خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا . فَقَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ تَدَوَّمُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ  
عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ ، لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةَ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، لَكِنْ  
يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً " ثَلَاثَ مَرَّاتٍ [ رواه مسلم ] .

يقول ابن العثيمين في شرح ساعة وساعة : " يعني ساعة للرب عز وجل وساعة مع الأهل والأولاد وساعة للنفس حتى يعطي الإنسان لنفسه راحتها ويعطي ذوي الحقوق حقوقهم وهذا من عدل الشريعة الإسلامية وكمالها أن الله عز وجل له حق فيعطى حقه عز وجل وكذلك للنفس حق فتعطى حقها وللأهل حق فيعطون حقوقهم وللزوار والضيوف حق فيعطون حقوقهم حتى يقوم الإنسان بجميع الحقوق التي عليه على وجه الراحة ويتعبد لله عز وجل براحة لأن الإنسان إذا أثقل على نفسه وشدد عليها مل وتعب وأضاع حقوقاً كثيرة " (١)

وقال السيوطي : " أي أريحوا القلوب بعض الأوقات من مكابدة العبادات، بمباح لا عقاب فيه ولا ثواب . قال أبو الدرداء : " إني لأجِمُّ

(١) محمد بن صالح بن محمد العثيمين " شرح رياض الصالحين " ص ١٦٩

فؤادي ببعض الباطل " أي اللهو الجائز " لأنشط للحق " . وذكر عند المصطفى ﷺ القرآن والشعر ، فجاء أبو بكر فقال " أقرأه وشعر ؟ " فقال " نعم ، ساعة هذا وساعة ذاك " . وقال علي " أجموا هذه القلوب ، فإنها تمل كما تمل الأبدان " أي تكل . (١)

### الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان

والنبي ﷺ وضَّح لنا بجلاء الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان فعن عمر بن الخطاب قَالَ : " بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ ، وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " الْإِسْلَامُ : أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا " . قَالَ : صَدَقْتَ . فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ ! قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ . قَالَ " أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ " . قَالَ : صَدَقْتَ . قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ . قَالَ : " أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ " [متفق عليه]

فإذا كان إسلام المرء يتحقق بمجرد أدائه أركان الإسلام الخمسة فإن الإيمان يعنى أدائه ما أمره الله به ونهاه عنه خالصاً لله ووفق ما شرع " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا ، وَابْتِغَايَ بِهِ وَجْهَهُ " [أخرجه النسائي] .

(١) السيوطي " الجامع الصغير من حديث البشير النذير " ج ١ ص ٤٣٨ .

والإحسان معناه عدم الاكتفاء المؤمن بفعل الواجبات بل يتقرب إلى الله بالسنن والنوافل ، ولا يكتفي بترك المحرمات بل ينزه نفسه عن فعل المكروهات .

فعن أبي هريرة قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي أُعْطِيْتُهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ " [ رواه البخاري ] .

إن الإحسان أعلى مراتب الإسلام، وأفضل درجاته ؛ لأن القرب من رب العالمين ونيل الزلفى لديه هو بالإحسان إلى النفس والإحسان إلى الخلق، فإذا جمع العبد بين ذلك كان أقرب إلى ربه.

والإحسان يتضمن نفع النفس بجميع القربات وأنواع الخيرات، وكفها عن جميع المحرمات، ونفع الخلق بجميع أنواع البر. والإحسان أفضل منازل السائرين، وأعلى درجات العبادة، وأحسن أحوال عباد الله الصالحين، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقد وعد الله تعالى على الإحسان أعظم الثواب في الدارين، وأحاط المحسنين بعنايته، وحفظهم بقدرته، وأجزل لهم الخيرات برحمته تعالى.

فما الإحسان الذي هذا درجته عند الله؟ وما الإحسان الذي هذا ثوابه في الدارين؟ قال رسول الله ﷺ : " أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ

تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ " ومعنى هذا أن العبد يعبد الله مستحضراً قربه من الله، ووقوفه بين يديه، كأنه يراه ويشاهده، وذلك يقتضي خشية الله وتعظيمه والخوف منه ومحبته، ويوجب النصح في العبادة، وبذل الجهد في إتقانها، وإتمامها وإكمالها .

الإحسان إقامة الصلاة على أتمّ وجوهاها، والتقرب إلى الله تعالى، ومناجاته في ساعات الليل إذا الناس ينامون، وإحسان إلى الخلق، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ \* كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ \* وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ \* وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [ الذاريات : ١٦ - ١٩ ] .

الإحسانُ جهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد المنافقين وجهاد الكفار، قال الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ \* وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَأَسْرَفَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ \* فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ تَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [ آل عمران : ١٤٦ - ١٤٨ ] .

الإحسان إنفاق في الغنى والفقر، وكظم للغيط، وعفو عن الجاهلين، قال الله تعالى:

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [ آل عمران : ١٣٤ ] .

الإحسان نصح لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، قال الله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا

يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ [ التوبة : ٩١ ] .

الإحسان انقياد للحق، وحبُّ له، واستماع للوحي المنزل بقلوب سليمة وأذان واعية وعيون دامعة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ \* وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ \* فَأَنَّا بَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣-٨٥]. (١)

ويقول د. عبد الله دراز : " ينتج عن هذا التنافس بين القيم أن الواجب في كل فرع من فروع الحياة . لا ينبغي أن يشغل إلا مساحة معينة من الخير الممكن من نفس هذا الفرع ، كي يتيح للفروع الأخرى أن تشبع احتياجاتها وتحصل على نصيبها المشروع من نشاطنا . وهناك حدود عليا تدركها الضمائر السوية بحيث إذا تعدت الفضيلة هذه الحدود ، لا يتبقى منها شيء يسمى فضيلة لأنها قد بدأت تضر بفضيلة أخرى .

ولكن هذه الحدود العليا - التي تتنوع بحسب استعداد وظروف كل إنسان - لا ترسم ميدان الخير الأخلاقي إلا على نحو جزئي وسلبى . ونظراً لاتساع هذا الميدان ورحابته ، فإن كل إنسان يلمس فيه درجات متفاوتة من الثواب بحيث أن أي تقصير في درجة أو أخرى من هذه

(١) من خطبة جمعة ألقاها الشيخ علي بن عبد الرحمن الحذيفي في المسجد النبوي بتاريخ ١٤٢٣/٢/١٣ .

الدرجات يترتب عليه إما لوم شديد ، وإما تأنيب بين الخفيف والشديد ، وإما إنه لا يثير أي رد فعل في الضمير . أليس في ذلك اعتراف بأن فكرة الخير يجب أن تتضمن قيمتين مختلفتين : حداً أدنى إجبارياً ، وإضافة فوق هذا الحد أكثر إغراء بالثواب ؟ ولا يتركز اختلاف الضمائر على هذه النقطة ، وإنما يحدث الخلاف عندما يكون الجانب الإلزامي هو أدنى الدرجات الممكنة ، وهو مقياس لا يحقق رضا الناس بصفة عامة . فالرجل الصالح يكون أكثر تشدداً ؛ لأنه يتصور مستوى الوسط مبهماً لا يستطيع أن يحدد له مقياساً دقيقاً . إذ كيف السبيل إلى تحديد هذا الوسط لكل واجب من واجباتنا ؟ أليس هناك مقياس عملي أو موضوعي يستطيع عقل الإنسان أن يقدمه . وإذا لجأنا إلى الضمائر الفردية فسوف لا تتفق فيما بينها على شيء ، وإذا تداولنا فيما بيننا لرسم حدود متفق عليها ، فهذا يعني اللجوء إلى التحكم والتعسف ، ومع ذلك فإننا في أمس الحاجة إلى هذا التحديد لأن " شمولية القانون تقتضي قدراً من التجانس في الأساس " وإلا فلن تدوم أية قاعدة أخلاقية ولن يبقى من القانون غير اسمه خالياً من أي مضمون ....

ففيما عدا الواجب المطلق - وهو الإيمان - الذي ليس فيه قيود ولا حدود ، فإن الأخلاق الإسلامية ترسم لكل عمل قابل للتحديد درجتين من الخير وتعطي لكل منهما

علامات مميزة ومحددة بدرجة كافية : " الحد الأدنى " الذي يؤدي الهبوط دونه إلى الإخلال بالواجب ، ثم " الدرجة الأعلى " التي لا تتجاوز الحد الأقصى . وبعبارة أخرى " الخير " الإلزامي " ، " الخير

الموصى به " ، أي أن ما وصفته الأخلاق الإسلامية بأنه ضرورة ملحة يمثل مشاركة في كل قيمة من القيم ( مثل شهر من الحرمان يفرض على شهواتنا ، وعشر محاصيلنا ، وجزء من أربعين جزءاً من الأموال تخصص للفقراء ، وخمس صلوات في اليوم ... ) فضلاً عن ذلك يفسح القرآن الكريم في كل مجال طريقاً لمشاركة أوسع ، ويحث على عدم الاكتفاء بالوقوف عند هذا الحد المشترك ، وإنما على الارتفاع دائماً إلى درجات أكثر جدارة ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [ البقرة : ١٨٤ ] ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ [ الفرقان : ٦٤ ] ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْو ﴾ [ البقرة : ٢١٩ ] فالقرآن الكريم يضع فضيلة " الإسماع " فوق الحق السائد ، ويلج بصفة خاصة على فضيلة " الإحسان " ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [ البقرة : ٢٣٧ ] فإهمال المدين المعسر واجب ، ولكن التنازل عن الدين عمل جدير بالتقدير ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [ البقرة : ٢٨٠ ] ودفع الظلم عن الناس حق ، ولكن الصبر عليه والعفو عن الظالم ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [ آل عمران : ١٨٦ ] .

وأداء الفرائض خير ولكن ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٥٨] (١)

### التناقضات العملية للإلزام الأخلاقي

وتقابلنا مجموعة من التناقضات العملية للإلزام يشعر كل فكر أخلاقي أمامها أنه في حيرة وأن عليه أن يتخذ حيالها موقفاً . نذكر منها تناقضين رئيسيين :

(١) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ٢٨ ، ٢٩ .

أ- وحدة وتنوع : إذا كانت الأخلاق علماً فيجب أن ينبني على قوانين شاملة وضرورية لا على قضايا خاصة وعارضة . وبناء على ذلك إما أن نحافظ على وحدة القانون أو نحترم تنوع الطبيعة التي يحكمها هذا القانون .. إما الإبقاء على بساطة القاعدة أو إخضاعها لتعقيد الحياة التي تسري عليها هذه القاعدة .. إنهما طرفا الطريق التي علينا أن نسلكها ، وكلما اقتربنا من أحد الطرفين كلما ابتعدنا عن الطرف الآخر . تلك أولى الصعوبات الأخلاقية .

ب- سلطة وحرية : ترتبط هذه الصعوبة بالسابقة . إذ أن العلاقة التي يعبر عنها لفظ " إلزام " علاقة تتنازعها إرادتان مختلفتان لهما اتجاهات متنافرة . " فالمُشرّع " يحرص على " سلطته " و " الفرد " يدافع عن " حريته " . ولما كانت سلطة المُشرّع تظل مستحكمة ما دامت القواعد التي يصدرها هذا المُشرّع تحتفظ بقوتها وسلامة صياغتها ، فلا تؤثر الظروف في نفوذها بأي حال لتضعفه أو تحد منه ، هنا يصبح القانون الأخلاقي كالقانون الطبيعي تماماً حيث يتلقى الفرد قواعده بسلبية ويطبقها بانقياد أعمى . ومعنى هذا أن " الإلزام " الصرف يقابله انتفاء للحرية وخضوع ذليل . ولكن ما جدوى الضمير الذي لا يغير حضوره أو غيابه شيئاً هنا في مجرى الأحداث؟ إذا ما نحن أَرْضِينَا الفرد ومنحناه حرية كاملة في الاختيار والتصرف ، وسوف يتحول " الأمر " إلى مجرد " توصية يقبلها الفرد أو يرفضها حسب تقديراته الشخصية (١)

(١) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ٣٠ ، ٣١ بتصرف .

## كيف جمع الإسلام بين حرية الاختيار والإلزام الأخلاقي ؟

لقد كفل الإسلام حرية الاختيار للإنسان فلم يكرهه في الدين فمن قواعد الإسلام الرئيسة بالنسبة للحرية الدينية أو حرية الاعتقاد قوله تعالى ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [ البقرة: ٢٥٦ ] فلم يأمر الرسول ، والمسلمون مِنْ بَعْدِهِ ، أحدًا باعتناق الإسلام قسرًا ؛ إذ كيف يصنعون ذلك وهم يعلمون أن إسلام المُكره لا قيمة له .

لقد جعل الإسلام قضية الإيمان أو عدمه من الأمور المرتبطة بمشيئة الإنسان نفسه واقتناعه الداخلي؛ فقال تعالى ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [ الكهف : ٢٩ ] .

ولَقَتِ الْقُرْآنَ نظر النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة، وَبَيَّنَ له أن عليه تبليغ الدعوة فقط، وأنه لا سلطان له على تحويل الناس إلى الإسلام فقال ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [ يونس : ٩٩ ] وقال ﴿ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسْطِرٍّ ﴾ [الغاشية: ٢٢] وقال تعالى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [ الشورى : ٤٨ ] .

ومن ذلك يَتَضَحَّ أن دستور المسلمين يُقَرِّر حرية الاعتقاد، ويرفض رفضًا قاطعًا إكراه أحدٍ على اعتناق الإسلام .

إن إقرار الحرية الدينية يعني الاعتراف بالتَّعَدُّدِيَّة الدينية، وقد جاء ذلك تطبيقًا عمليًا حين أقرَّ النبي ﷺ الحرية الدينية في أوَّل دستور للمدينة، وذلك حينما اعترف لليهود بأنهم يُشكِّلُون مع المسلمين أُمَّةً واحدةً، وأيضًا في فتح مكة حين لم يُجْبِرِ الرسول ﷺ قريشًا على اعتناق الإسلام، رغم تمكُّنه وانتصاره، ولكنه قال لهم : " اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ "

وعلى دربه أعطى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب للنصارى من سكان القدس الأمان "على حياتهم وكنائسهم وصلبانهم، لا يُضارُّ أحدٌ منهم ولا يرغم بسبب دينه " .

بل إن الإسلام كفل حرية المناقشات الدينية على أساس موضوعي بعيد عن المهادنات أو السخرية من الآخرين، وفي ذلك يقول الله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وعلى أساس من هذه المبادئ السمحة ينبغي أن يكون الحوار بين المسلمين وغير المسلمين، وقد وَجَّه القرآن هذه الدعوة إلى الحوار إلى أهل الكتاب فقال : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]

ومعنى هذا أن الحوار إذا لم يَصِلْ إلى نتيجة فكلُّ دينه الذي يقتنع به، وهذا ما عَبَّرَتْ عنه أيضاً الآية الأخيرة من سورة (الكافرون) التي خُتِمَتْ بقوله تعالى للمشركين على لسان محمد ﷺ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] (١)

لقد أعطى الله سبحانه الإنسان الحرية الكاملة في اختيار عقيدته بعد بيان الحق الذي جاء به الأنبياء يقول تعالى : ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] .

إن العقيدة ليست ملْكَاً لأحد حتى يجامل فيها. إنما هي مِلْكُ الله ، والله غَنِيٌّ عن العالمين. والعقيدة لا تعتر ولا تنتصر بمن لا يريدونها لذاتها

(١) د. راغب السرجاني " حرية الاعتقاد في الإسلام " موقع قصة الإسلام .

خالصة، ولا يأخذونها كما هي بلا تحوير. والذي يترفع عن المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه لا يرجى منه خير للإسلام ولا للمسلمين .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٧] ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٩] ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام: ٣٥] ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النحل: ٩] .

لكن الحرية المطلقة فوضى مطلقة وضياح للحقوق الغير فحريتك يجب أن تقف عند حرية الآخرين ، وكما يُقال " أنت حر ما لم تضر " فكيف عالج الإسلام هذا التناقض بين حرية الإنسان دون حدوث فوضى أو اعتداء على حرية الآخرين لقد عالج الإسلام هذا التناقض بأن جعل هناك تشريعات (قوانين إلهية) فرضها على الناس جميعاً في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ورتَّب عليها حدوداً وتعزيرات دنيوية إن كانت تجور على حقوق الغير أو تفسد المجتمع ، وجزاءً أخروياً : الجنة لمن يلتزم بها والنار لمن كفر بها اعتقاداً أو تطبيقاً ، وقد خير الإسلام الإنسان في اختيار الإيمان أو الكفر ولم يرتَّب على هذا الاختيار عقوبة دنيوية إنما أرجأها إلى الآخرة ﴿ فَذَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٦].

أما الجرائم الأخلاقية التي تضر بالغير ، وفيها معاداة الله ورسوله ، وسعي في الأرض فساداً فقد حدّ لها حدوداً دنيوية ، وقرر لها تعزيرات رادعة لها .

ولكن الإسلام جعل العقوبات الدنيوية على الجرائم الأخلاقية آخر الدواء كالكيّ ولا يلجأ إليه إلا بعد غرس العقيدة ومخافة الله في النفوس ، وترسيخ رقابة الله تعالى على الإنسان ، وربط التشريعات بعللها كما سنبين بالتفصيل .

### الحل القرآني للإلزام الأخلاقي

وعن الحل القرآني للإلزام الأخلاقي يقول د. عبد الله دراز :

يقول تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحْخَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦] .

يحدثنا القرآن الكريم على أن نوجّه أنظارنا إلى السماء ، ونحن نستند على قواعد صلبة من الواقع . وهكذا يلتقي طرفا الخيط : صعود نحو المثل الأعلى ، وحفاظ على الفطرة ، " خضوع للقانون وحرية للذات " .

إن الضمير الذي يخاطبه القرآن الكريم ليس الضمير الفارغ البهيمي ، الذي ليس له مرشد سوى فطرته في حالتها البدائية . وإنما هو ضمير يجمع بين عنصرين لا يتوفران في غيره ، فهو مستتير بفضل تزوده بتعاليم موضوعية حيث الواجبات محددة ومرتبّة بدرجة كافية ، ثم إنه يواجه واقعاً حياً له وقاره في نفسه . وباختصار إنه " ضمير المؤمن " وخاصيته الفريدة أنه يحمل في أعماقه شخصية المُشرّع الحاضر المستعد للإجابة على كل استشارة . ولهذا فإنه لا يليق به - دون أن

يخدع نفسه - أن ينساق وراء اعتبارات يعرف أنها غير مشروعة في نظر المُشرِّع .

أما كون الفرد ملزم في حالة الشك والتردد أن يرجع إلى ضميره يستفتيه ، ويلتزم بتنفيذ ما يجيبه به ، فهذا ما وصَّانا به رسول الله مستوحياً القرآن " الْحَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِزِّهِ " [ البخاري ] " دَعُ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ ؛ فَإِنَّ الصَّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ ، وَالْكَذِبَ رِيْبَةٌ " [ صحيح الترمذي ] " اسْتَفْتِ قَلْبَكَ ، الْبُرُّ : مَا اطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، وَالْإِثْمُ : مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْثَوْكَ " [ حديث حسن رواه أحمد ] .

فمن بين الواجبات ما يتعين على أدائه كل يوم أو دورياً أو حسب الظروف . ومنها ما لا تسنح فرصته سوى مرة واحدة في حياتي . وكل من جسمي وعقلي وأسرتي ووطني ، وكل صلة من هذه الصلات تطالني بنشاط محدد تعينه قاعدة أخلاقية . ومع ذلك أستطيع عندما أستيقظ في الصباح أن أنوع في برنامج أعمال اليومية وأحدد خط سيرتي كيفما أشاء ، كما أستطيع أن أعدِّل فيه بالإضافة أو الحذف . وهكذا أستطيع أن أملأ صفحة كاملة من حياتي الأخلاقية بالأعمال المجيدة مع احترامي " للقواعد العامة " المتعلقة بهذه الموهبة البشرية . فكيف يمكن المطالبة بقدر أكبر من الحرية يؤدي إلى نفس هذه الحدود؟ ما لم تكن هذه المطالبة دعوة إلى الفوضى أو إلى الجنون . بل إن مثل هذه المطالبة هي التي يجب التصدي لها بمقتضى كل حكمة تشريعية جديرة بهذا الاسم .

إننا لا ننشئ " قواعد التشريع " وإنما نتلقاها جاهزة من يد مُشرِّعنا صريحة أو ضمنية . أما تحديد " واجباتنا " فإننا " نبنينا " انطلاقاً من المثل العليا وفي حدود استطاعتنا . هذا هو الموقف المعقول واليسير الذي يتخذه قانون الأخلاق القرآني . فهو يضع الإنسان في مكانه الصحيح . وفي الظروف التي تتناسب تماماً مع فطرته وعقله الخالص .... فعندما يلتحم " ضميرنا " مع القانون الإلهي المقدس يتمثله الضمير ويدافع عنه ، ويجعله جزءاً منه . ومن ناحية أخرى عندما نقوم بترتيب مختلف القواعد المقررة ، وتوفيقها بما يتناسب مع ظروفنا الخاصة ، لا نفعل ذلك في غيبة المولى سبحانه وتعالى إنما تحت رعايته وإشرافه ومراقبته . فنحن دائماً نستلهمه ، كما لو كان يواصل في أعماقنا دور المُشرِّع حتى في أدق التفاصيل .

إنها وحدها - في رأينا - الأخلاق الدينية هي التي تستطيع أن تنهض بهذه المهمة . وهذا ما فعله قانون الأخلاق في القرآن عن جدارة وبلا معقب لحكمه ! " (١)

### الرقابة الإلهية على الأعمال الإنسانية

لقد أكد الله تعالى عقيدة إحاطة علمه بأحوال الخلق ، ورقابته تعالى لهم في كل أحوالهم ، ومحاسبته لهم على ما يعملون صغيراً كان أو كبيراً من أجل الترغيب في فعل الصالحات واجتناب المنهيات في السر والعلن يقول تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [ النساء : ١ ] ﴿ وَكَانَ

(١) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق في القرآن الكريم " مرجع سابق ص ٣٥ ، ٣٦ بتصرف .

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿ [الأحزاب: ٥٢] ﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿ [ق : ١٨] ﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿ [ق : ١٦] .

فكل عمل يفعله الإنسان يعلمه الله تعالى ويحاسبه عليه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ١٩٧] ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ﴾ [البقرة: ٢٧٠] ﴿ قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٩] ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣] والآيتان الجامعتان في هذا قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] .

من يعمل أي قدر من الخير وإن كان قليلاً يثب عليه في الآخرة قال ﷺ : " لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليقٍ " [رواه مسلم] ومن يعمل أي قدر من الشر وإن كان قليلاً فسوف يجز به قال رسول الله ﷺ : " إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنٍ وَادٍ فَجَاءَ ذَا بَعُودٍ وَجَاءَ ذَا بَعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْرَتَهُمْ وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تَهْلِكُهُ " [رواه أحمد] .

وهاتان الآيتان قد جمعتا أسمى وأحكم ألوان الترغيب والترهيب ، لذا قال كعب الأحبار : لقد أنزل الله تعالى على نبيه محمد ﷺ آيتين ، أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزيور والصحف ، ثم قرأ هاتين الآيتين .

وَعَنْ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ ، عَمَّ الْفَرَزْدَقِ . أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ، قَالَ : حَسْبِي ، لَا أُبَالِي أَنْ لَا أَسْمَعَ غَيْرَهَا . [رواه أحمد والنسائي] .

### ربط الحكم بالغاية منه

الله تعالى الله سبحانه وتعالى هو الخالق البارئ المصور الرازق ذو القوة المتين المحيي المميت الذي بيده ملكوت الأرض والسموات ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٤] ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨] لذا يجب على العبد أن يطيع خالقه فيما يأمر دون أن يسأل أو يناقش أو يعرف علة ما يؤمر به فالله تعالى ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٤١] فإذا كان لا حق للعبد على سيده إلا ما يتفضل به سيده عليه فما بالنا بالإنه الأعظم الذي لا شريك له في ملكه ولا أمره ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ومع ذلك فإن الله تعالى من رحمته بعباده قد ربط كل خلق كريم يدعو إليه أو تشريع حكيم يأمر به بالعلّة منه والغاية المستهدفة من ورائه .

والقرآن الكريم يعنى عناية فائقة بأن يقرن كل حكم في الشريعة بما يسوغه ، ويربط كل تعليم بالقيمة الأخلاقية التي يتأسس عليها .

ولهذا كان على المؤمنين أن يتخذوا من التشريع الإلهي أكمل مرشد أخلاقي يمكن أن يهديهم إلى هذا الجوهر إذن المصدر الحقيقي للإلزام يكمن في فكرة القيمة الذاتية ، إنها أعقل ما في العقل ، وآخر مرجع للحاسة الخلقية .

ونسوق بعض الأمثلة لمنهج القرآن الكريم في هذا الشأن :  
فحين يدعونا القرآن إلى قبول الصلح يؤيد دعوته بتلك الحكمة ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨] ولكي يبرر قاعدة الحياء بغض البصر وحفظ الفرج يقول ﴿ذَلِكَ أَزكى لَهُمْ﴾ [النور : ٣٠] وبعده أمره بتبين الأسباب قبل إصدار أي حكم يقول ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات : ٦] وحين أمرنا بكتابة ديوننا ، يفسر ﴿ذَلِكَمُ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾

[البقرة : ٢٨٢]

وفي توجيهه إلى التماس القيم الروحية بصفة عامة ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة : ١٠٠] ﴿وَلِبَاسُ النَّفَقِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] ولكي يشهدنا على الأساس الذي صدرت عنه الشريعة الإلهية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف : ٨٢] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] (١)

(١) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ١٧ ، ١٨ .

والعقل الصحيح المنزه عن الهوى يقرُّ بكل أوامر الله ونواهيه ويدرك الحكمة العظمى والفائدة المحققة من ورائها ، وإذا حدث تعارض بين العقل والنقل فالخطأ إما أن يكون في عدم صحة العقل أو عدم صحة النص أو عدم صحة فهمه فلا تعارض مطلقاً بين العقل الصحيح والنص الصريح بل إن النص الصريح يدعو إلى إعمال العقل الصحيح. ولابن تيمية كتاب قيم في هذا بعنوان " درء تعارض العقل والنقل " .

### لماذا جعل الإسلام عقوبات دينوية على الجرائم الأخلاقية ؟

إن الإكراه على الفضيلة لا يصنع الإنسان الفاضل ؟ كما أن الإكراه على الإيمان لا يصنع الإنسان المؤمن ؟ فالحرية النفسية والعقلية أساس المسؤولية. والإسلام يقدر هذه الحقيقة ويحترمها ؟ وهو يبنى صرح الأخلاق.

فالعقل الصحيح في نظر الإسلام هو تحطيم القيود وإزالة الأثقال أولاً؟ فإذا جثم الإنسان على الأرض بعدئذ ؟ ولم يستطع سمواً ؟ نُظر إليه على أنه مريض ؟ ثم يُسرت له أسباب الشفاء . ولن يصدر الإسلام حكماً يعزل هذا الإنسان عن المجتمع إلا يوم يكون بقاؤه فيه مثار شرّاً على الآخرين .

في حدود هذه الدائرة يحارب الإسلام الجرائم الخلقية ؟ فهو يفترض ابتداءً أن الإنسان يحيا أن يعيش من طريق شريف ؟ وأن يحيا على ثمرات كفاحه وجهده الخاص أي أنه لا يبنى كيانه على السرقة. ما الذي يحمله على السرقة؟ احتياجه إلى ما يقيم أودّه؟ فليوفر له من

الضرورات والمرفهات ما يغنيه عن ذلك. وتلك فريضة على المجتمع ؟  
إن قصر فيها فألجأ فرداً إلى السرقة ؟ فالجريمة هنا يقع وزرها على  
المجتمع المُقَرَّب ؟ لا على الفرد المضيع .

فإن كَفَلْتَ للفرد ضروراته ثم مدَّ بعد ذلك يده ؟ مَحَصَّت حالته جيداً  
قبل إيقاع العقوبة عليه ؟ فلعل هناك شبهة تثبت أن فيه عِزْقاً ينبض  
بالخير ؟ والإبطاء في العقاب مطلوب ديناً ؟ فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " ادْرَعُوا الْحُدُودَ مَا اسْتَطَعْتُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ وَجَدْتُمْ  
لِلْمُسْلِمِ مَخْرَجًا فَخَلُّوا سَبِيلَهُ فَإِنَّ الْإِمَامَ لَأَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ  
أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ " [ رواه أحمد والبيهقي والترمذي وضعفه ]

إذا تبين من تتبع أحوال الشخص أن فطرته انحرفت ؟ وأنه أصبح  
مصدر عدوان على البيئة التي كَفَلَتْه وآوته بتعكير صفوها وإغلاق أمنها  
؛ فلا ملام على هذه البيئة إذا حَدَّت من عدوان أحد أفرادها ؟ فكسرت  
السلاح الذي يؤدي به غيره . (١)

\*\*\*

(١) الشيخ محمد الغزالي " خلق المسلم " ص ٢٠ .

## الفصل الخامس

المسؤولية



## المسئولية

### أنواع المسئولية

ترتبط أفكار : الإلزام الأخلاقي ، والرقابة الإلهية ، وربط الحُكم بعَلَّتته - التي سبق ذكرها - بفكرتي : المسئولية ، والجزاء ، وكل هذه الأفكار متضامنة لا تتفصل .

والمسئولية في الإسلام ثلاثة أنواع : المسئولية الدينية ، والمسئولية الاجتماعية ، والمسئولية الأخلاقية الخالصة ولقد ذكر القرآن الكريم هذه المسئوليات في آية واحدة بنفس الترتيب ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ [ الأنفال : ٢٧ ] .

### هل هناك تعارض بين المسئولية الوطنية والمسئولية الدينية؟

إن المسلم عليه الالتزام بالمسئولية الوطنية فيطع ولي الأمر والدستور والقانون ويراعي العرف والتقاليد ويحترم جميع المواطنين الصالحين ، لما يترتب على مخالفة ذلك من انتشار المفساد، وإثارة الفتن والقلق، واختلال الأمن، وتضيق الحقوق، وترويع الناس، وانتهاك الحُرُمات والأعراض، وتقويض أركان الدولة ومقوماتها ، ولا يتعارض هذا مع المسئولية الدينية بل إن تعاليم الدين تأمر به فقد دلَّ الكتاب والسنة على وجوب طاعة ولي الأمر والالتزام بالدستور الذي يحكم به والقوانين التي

يطبقها ما لم يتعارض ذلك كله بنصوص الدين قطعية الثبوت والدلالة وما اتفق عليه العلماء من المعلوم بالدين بالضرورة يقول الله تعالى : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] .  
ويقول النبي ﷺ " أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَأَهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلْيَكْرِهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ "

[ صحيح مسلم ]

أما بالنسبة للعرف أو العادة فإن الله تعالى يوجه نبيه إلى الأمر به يقول تعالى ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

[الأعراف: ١٩٩]

ويقول رشيد رضا في تفسير الآية : " إن العرف أو المعروف أحد هذه الأركان للآداب الدينية والتشريع الإسلامي ، وهو مبني على اعتبار عادات الأمة الحسنة ، وما تتواطأ عليه من الأمور النافعة في مصالحها " .

والأصل في هذا ، أنه لا يُحَرِّم على الناس من العادات والمعاملات التي يحتاجون إليها ، إلا ما دلَّ المقطوع بحرمة لا المختلف عليه فإن فيه سعة .

ولا يوجد من حيث المبدأ ولا يمكن أن يوجد في الأخلاق الإسلامية أي تصادم بين واجب المواطن الصالح وواجب المسلم الصالح فكل الواجبين تابعان لنفس القانون النابع من مصدر تشريعي واحد إلا أنه في مواجهة أي تشدد من الرؤساء عن هوى أو نزوة فإن القاعدة غاية في البساطة " لا طاعةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " [ رواه أحمد بسند صحيح ] وروى الشيخان " لا طاعةَ فِي مَعْصِيَةِ إِمَامٍ الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ " .

## الإرهاب والمسئولية الوطنية

ورغم أن الإسلام حرّم الإفساد في الأرض والاعتداء على النفس بغير حق وكذا الأعراض والممتلكات العامة والخاصة ، ورغم أن حفظ النفس، والمال ، والعقل من الكليات الخمس التي اتفقت كل الشرائع السماوية على جوب حفظها ، وحفظ النفس الذي جاءت الشرائع به يكون بتحريم قتلها أو إيذاؤها ، وحفظ المال يكون بتحريم أكله بالباطل وإتلافه ، وحفظ العقل يكون بتحريم إفساده بالمسكرات والمخدرات والمفترات ، والشائعات المغرضة ، والافتراءات الكاذبة.

وبرغم نصوص الدستور ، والقانون التي تجرّم الإخلال بالنظام العام أو تعريض سلامة المجتمع وأمنه للخطر ، وإيذاء الأشخاص أو إلقاء الرعب بينهم أو تعريض حياتهم أو حرياتهم أو أمنهم للخطر ، أو إلحاق الضرر بالبيئة أو بالاتصالات أو المواصلات أو بالأموال أو بالمباني أو بالأماكن العامة أو الخاصة ... والترويج بالقول أو الكتابة أو بأية طريقة أخرى للأغراض المذكورة .

برغم كل هذا إلا أن أمة الإسلام قد ابتليت بجماعات إرهابية وتنظيمات إجرامية ترى اختلافها مع بعض مسئولى الدولة مبرراً لهدم أركان الدولة وترويع الأمنيين ، والإضرار بمصالح الناس العامة والخاصة فيفجرون المنشآت العامة ، ويدمرون مرافق الدولة ، ويستهدفون رجال الجيش والشرطة والقضاء وغيرهم بالقتل ، وينشرون الإشاعات المغرضة التي تبلبل الأفكار وتنتشر الفزع والخوف ، وتثير الفتن ، ... وهذا يتعارض مع المسئولية الوطنية التي لا يمكن بحال أن

تتعارض مع المسؤولية الدينية كما بينا فما يفعله هؤلاء الإرهابيون الذين يتمسحون بالدين ، والدين منهم براء ، لا يجوز شرعاً ولا قانوناً ولا عقلاً ولا عرفاً ، بل فيه مخالفة لله ورسوله، وللدستور والقانون ، وللعقل الصحيح ، والعرف السائد ، ولألي الأمر الواجب طاعتهم .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] .

فما يرتكبه هؤلاء المجرمون معصية صريحة لله ورسوله ، وخروج على ولي الأمر الذي انتخبه الناس بحرية كاملة وإن ارتضى غالبية الناس حكمه.

وسنعود للحديث عن الإرهاب في الفصل التالي عند حديثنا عن الحدود .

### شروط المسؤولية الأخلاقية

ونبدأ بدراسة شروط المسؤولية الأخلاقية والدينية التي ترددت في كثير من الآيات القرآنية ، وتؤكد أولاً على الطابع الشمولي لمبدأ المسؤولية الذي وسّع القرآن نطاقه حتى شمل جميع المخلوقات العاقلة، دون تفرقة بين عقل إنساني ، وعقل " فوق إنساني " وبين عامة الناس وأشدهم ورعاً ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا \* وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣-٩٥] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : ٩٢ ، ٩٣]

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف : ٦] ولا شك أن المقصود هنا هي المسئولية أمام الله تعالى يوم القيامة .

وإن الحساب يوم القيامة لن يكون على جميع الأعمال الظاهرة والخفية فحسب ﴿وَأَن تَبْذُؤُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْضَعُوا يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة : ٢٨٤] وإنما على جملة استخداماتنا لمَلَكَاتِنَا ، ولكل خير فطري أو مكتسب ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء : ٣٦] . ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر : ٨] ويقول النبي ﷺ : " لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ ؟ " [ صحيح الترمذي ] وتلخيص هذا كله نجده في قول النبي ﷺ " كلُّكم رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ : وَالْأَمِيرُ رَاعٍ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ " [ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ] .

فكل فرد في مجالته مسئول عن حسن سير الأمور التي وكلت إليه .

بيد أن المسئولية الأخلاقية والدينية ، لكي تكون شاملة ، لها شروط :  
أ- الطابع الشخصي للمسئولية : المسئولية الأخلاقية والدينية مسئولية شخصية بحتة . وسوف نكتفي ببعض الآيات القرآنية التي تقرر هذا المبدأ الأساسي ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء : ١٥] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾

[لقمان : ٣٣]

يتضح من هذا أنه لا يمكن أن يحدث في مجال الثواب والعقاب أي تحويل أو تمديد أو مشاركة أو التباس ، حتى بين الآباء والأبناء . فضلاً عن الأجداد الأولين ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤١] وهكذا بجرة قلم تم استبعاد قضية خطيئة آدم . فالقرآن يرفض امتدادها على الناس أجمعين، ولا يرى أنها ذات طابع دنيوي كما تصفها العقيدة المسيحية.

### كيف يحمل العصاة ذنوباً مع ذنوبهم . والمؤمنون تلحق بهم ذريتهم ؟

يذكر القرآن الكريم حالتين كأنهما خرجتا على مبدأ المسؤولية الفردية . فقد قال تعالى عن المذنبين : ﴿ وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَا مَعَّ أَنْتَ لَهُمْ ﴾ [العنكبوت : ١٣] كما صرح بأن ذرية المؤمنين سوف تعامل معاملة آبائهم إذا اتبعوهم في طريق الإيمان ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الطور : ٢١] مما قد يوهم أن الثواب والعقاب لن يكونا تبعاً لجهد الفرد وحده ، وإنما قد يتأثر بعمل الآخرين .

نبدأ باستبعاد فكرة تحويل كامل يحرم الفرد الرئيسي من ثواب جهده ، أو يفلت به من عقاب سيئاته . هيهات أن يحدث ذلك . فإن ذات النصوص التي ذكرت الحالتين تؤكد هذه الحقيقة ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : ٢١] ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٢] هي إذن إضافة من الثواب أو العقاب تأتي - فيما يبدو - من الخارج ، زيادة على جزاء العمل الفردي . إلا أنه بعد هذا التوضيح لا يزال هناك

ما يوهم بالتعارض مع النصوص التي تنفي أن ينسب للإنسان ما ليس من عمله .

توضح دراسة الحالة الأولى طريقة الإسلام في تصور المسئولية الفردية . فالإنسان ليس مسئولاً فقط عن الأعمال التي يؤديها بالتدخل الإيجابي المباشر ، وليس فقط عن القدوة التي تنتشر بين الناس بسبب مهابة صاحبها ، إنما عن كل مبادرة - حسنة أو سيئة - يكون لها آثار تتجاوز حدودها أو نتائجها المباشرة ، وفي الحديث " لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ، لَأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَ الْقَتْلَ " [ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ] بل هناك أبعد من ذلك فنحن مسئولون أيضاً بصورة ما عن تصرفات غيرنا حين نتركهم يسيئون دون أن نتدخل بالوسائل المشروعة لمنعهم ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ \* كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

[ المائدة : ٧٨ ، ٧٩ ]

فالمسئولية الفردية هي من الامتداد حتى تكاد تتدمج مع المسئولية الجماعية ، ولكنها ليست هي .

وليس هذا كل شيء فالنتائج البعيدة التي تحدثها أعمالنا الواعية في المجتمع تدخل في الحساب سلباً أو إيجاباً ، حتى بعد موت صاحبها " إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ " [ رواه مسلم ] .

أما الحالة الثانية والتي يمثلها قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾

[الطور : ٢١] فلها تفسيرات عديدة تحاول أن تسوغ حكم الآية الذي يسوي في الواقع بين طرفين غير متساويين في الحق . ونسأل عما إذا كان في الآية الكريمة ما يفيد مثل هذه المساواة . إذ أن كلمة " ألحق " تفسر بمعنى " شَبَّه " أو بمعنى " اتبع وضمَّ " وهناك ما يدعو إلى الأخذ بالمعنى الثاني .

فإننا نجد آيات أخرى تعالج حالات شبيهة ولا تشير إلى معاملة على قدم المساواة وإنما مجرد مشاركة بلفظ " مع " ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]. وفي الحديث " أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ " [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ] و " الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ " [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ] إنها حالة خاصة في إطار المفهوم العام ، إنها " الحب في الله " . وهي حالة الأبناء الذين لم يكتفوا ببنوتهم الطبيعية ، فأضافوا إليها " بنوة روحية " فلماذا لا يتحقق مثلهم الأعلى باجتماعهم في الله مع من كان قدوة لهم في الدنيا ، واتبعوه بدرجات متفاوتة في الكمال ؟ وإلا كان فصلهم إنكاراً لقيمة هذا الحب علماً بأن هذا الاجتماع لا يمنع مطلقاً من وجود تدرج في الجزاء كالقطار الذي يقل طوائف مختلفة من المسافرين ، ومع هذا فالركاب فيها درجات : أولى ، وثانية ، وثالثة .

وهكذا لا تتعارض الآية مع المبدأ العام مبدأ المسؤولية الفردية التي تظل فردية بكل معنى الفردية .

### المفهوم الإسلامي للشفاعة يوم القيامة

ومن المفاهيم التي يتناقض فهمها الخاطئ مع المسؤولية الفردية يوم القيامة مفهوم الشفاعة . فكثير من المسلمين يفهمون الشفاعة خطأ

فيظنون أنهم ماداموا من أمة محمد فإنهم حتماً سيدخلون الجنة ولن يعرضون على النار ولن يدخلوها وإن قتلوا وزنوا وسرقوا وارتكبوا كبائر الإثم والفواحش بفضل شفاعة النبي ﷺ لن يدخل مسلم النار " فأمة محمد بخير " ، " واعمل اللي يعجبك وصل على اللي يشفع فيك " !

وقد يثار اعتراض عند محاولة فهم " الشفاعة " على هذا النحو بحسب ما نراه في حياتنا الدنيا ، وهذا مخالف للمفهوم الإسلامي للشفاعة ؛ فالشفاعة لا تقبل في الكافر ولا فيمن غضب الله عليه .

﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [ غافر : ١٨ ] .

فالذين ظلموا أنفسهم فارتكبوا المعاصي والآثام وخالفوا شريعة الله فلن تتفعهم شفاعة الشافعين ولن يسمع فيهم شفاعة ولا يقبل منهم فداء حتى يأخذوا جزاءهم .

﴿ وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [ البقرة : ٤٨ ] .

﴿ فَمَا تَتَفَعَّهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [ المدثر : ٤٨ ] .

حتى إذا أراد الله تعالى رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود ، فقد حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار وقد احترقوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون .

وجاء في الحديث الصحيح " أمّا أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم أو قال : بخطاياهم حتى إذا كانوا قحماً أذن في الشفاعة فجاء بهم ضبائر

ضَبَائِرَ ( جماعات ) فَبُتُّوا عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ قِيلَ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ قَالَ : فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحَبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ "

[ رواه مسلم وأحمد ]

فالشفاعة يوم القيامة لمن يستحقون الشفاعة من أهل الخلاص وهي مقيدة بأمرين :

أولاً : إذن الله تعالى للشافع بأن يشفع لقوله تعالى :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [ البقرة : ٢٥٥ ] .

﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [ سبأ : ٢٣ ] .

﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾

[ طه : ١٠٩ ]

﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رُكُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [ يونس : ٣ ] .

ثانياً : رضا الله تعالى عن المشفوع له لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [ الأنبياء : ٢٨ ] .

﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

[ الزمر : ٤٤ ]

إذن الشفاعة بهذا المعنى تُسَبِّغُ شَرْفًا مَزْدُوجًا عَلَى الْمَدَافِعِ وَالْمَدَافِعِ ، ولكن هيهات أن تكون القضية دائماً موفقة إذ قد يخطئ الشفيع في الوقائع فيسحب عندئذ شفاعته ، فيقال للرسول " فَيَقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدَثُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سَحَقًا سَحَقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي " [ البخاري ] فإذا ما

تكللت جهود الشفاعة بالنجاح فذلك لأن المشفع لهم يستحقون ثواب الله طبقاً لشرائعه ، وتكون الشفاعة فرصة لتتجلى الإرادة الإلهية .

### الأساس القانوني للمسئولية

يعلمنا القرآن الكريم أن أحداً لن يحاسب على أفعاله ما لم يكن قد علم بالأحكام مُسبقاً ويكون الإعلام بطريقتين مختلفتين : طريق داخلي (الروح ، والقلب ، والعقل) أو الفطرة ، وطريق خارجي رسل الله وكتبه المقدسة .

فقواعد القانون الأخلاقي ، في أكثر صورها شمولاً ، مُسَجَّلَةٌ في الفطرة الإنسانية ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[ الرُّوم : ٣٠ ]

ولكي نتعرف على هذه الفطرة ، فما علينا سوى الاهتداء بأرواحنا التي هي نفخة من روح الله ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ ص : ٧٢ ] واستشارة عقولنا المبصرة المنزهة عن الهوى والعمى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [ الحج : ٤٦ ] ، واستفتاء قلوبنا السليمة من المرض ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [ الشعراء : ٨٩ ] .

فهل هذه المعرفة تكفي لتأكيد مسئوليتنا أمام الله تعالى ؟

أكثر مدارس أهل السنة يقرّرون أننا لسنا مسئولين أمام الله ولا حتى عن واجباتنا الأساسية إلا في حدود تعليم الله لنا بطريقة خاصة وإيجابية

ويستندون في ذلك إلى نصوص القرآن . ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٥] ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ [القصص: ٥٩] فقد أوجب الله تعالى على نفسه أن يعلم الناس قبل أن يحملهم مسئوليتهم ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥] لأن الله تعالى يرى أن من الظلم تعذيب القرى التي غفلت عن واجباتها لأنها لم تعرفها ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣١] ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ \* ذَكَرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

[الشعراء: ٢٠٨، ٢٠٩]

فإذا كان هذا شأن الأسوياء من الناس ، فما القول في الضمائر المحجوبة لأسباب طبيعية ؟ لقد ذكرت السنة النبوية هذه النقطة " رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ عَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقَلَ " [ صححه الألباني ] .

أما في حالة النسيان كظاهرة طبيعية خارجية عن إرادة الإنسان ولا ترجع إلى خطأ منه ، فهل يكون مقبولا في منطق العدالة القائمة على واقع الأمور أن يكون مسئولا عن مخالفته للقاعدة . بالطبع لا . فحين دعا المؤمنون ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

[البقرة: ٢٨٦]

عرفنا حتى الآن العلاقة التي تربط الفرد المسئول بالقانون . ورأينا أن المسئولية لا تقرر ولا تجد مبررها في نظر القرآن إلا بشروط : أن تزداع شريعة الواجب ، وأن يعرفها كل ذي علاقة بها ، وأن تكون حاضرة في ذهنه وقت إنجازه العمل .

وبالإضافة إلى علاقتنا بالقانون " كعلامة معرفة " لنا علاقة أخرى بالعمل وهي " علاقة إرادة " والعلاقتان يضمهما الضمير الأخلاقي للفرد في وقت واحد . وإن المحكمة التي مهمتها أن تتسبب الأعمال إلى الأشخاص لا تستطيع أن تصدر حكماً عادلاً دون أن تأخذ في الحسبان الطريقة التي تقع بها هذه الأعمال وعلاقتها بأشخاصاً .

وبادئ ذي بدء يجب أن نستبعد العمل اللا إرادي من مجال المسئولية، حيث تنقصه الإرادة كعنصر تكويني للشخصية .

إن المسئولية ليست مجرد نسبة العمل إلى إنسان جملة ، وإنما لا بد من وجود صفة مميزة ، وهي أن يترتب على العمل وجوب الثواب أو العقاب . وبالتالي فمن الضروري أن يكون العمل الإرادي متصوراً في ذهن صاحبه بنفس الطريقة وبنفس وجهة النظر التي تصورها عنه المشرع . (١)

### هل بمقدور الإنسان أن يزكى نفسه ويظهرها من فجورها ؟

لقد جاء في أقوال الرسول ﷺ ما يثبت التفاوت الفطري في الطباع الخلقية وغيرها :

(١) لمزيد من التفاصيل حول المسئولية راجع كتاب د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق في القرآن الكريم " الفصل الخاص بالمسئولية مرجع سابق .

ومنها " النَّاسُ معَادِنُ كَمَعَادِنِ الفِضَّةِ وَالذَّهَبِ . خيارُهم في الجاهليَّةِ خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا " [ متفق عليه ] .  
وفي قول الرسول ﷺ " النَّاسُ معَادِنُ " دليل على فروق الهبات الفطرية الخلقية .

ومنها قوله ﷺ " إِنَّ اللهَ تعالى خلق آدمَ مِنْ قبضةٍ قبضَها من جميع الأرضِ ، فجاء بنو آدمَ على قَدَرِ الأرضِ ، جاء منهم الأحمرُ ، والأبيضُ ، والأسودُ ، وبيِّنَ ذلكَ ، والسَّهْلُ ، والحَزْنُ ، والخبيثُ ، والطَّيِّبُ ، وبيِّنَ ذلكَ . " [ صحيح الترمذي ] .

وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ قالَ : " إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أخلاقكم كما قَسَمَ بَيْنَكُمْ أرزاقكم وإنَّ اللهَ يُوْتِي المالَ من يحبُّ ومن لا يحبُّ ولا يُوْتِي الإيمانَ إلَّا من أحبَّ فإذا أحبَّ اللهُ عبداً أعطاهُ الإيمانَ فمن ضنَّ بالمالِ أن ينفقه وَهَابَ العدوُّ أن يجاهدهُ واللَّيْلُ أن يُكابدَهُ ؛ فليكثر من قولٍ لا إِلَهَ إلَّا اللهُ واللهُ أَكْبَرُ والحمدُ لله وسبحانَ اللهُ "

[ صححه الألباني ]

ولدينا حقيقة ثابتة لا بد من ملاحظتها في مجال كلِّ تكليف رباني :  
هي أنَّ الله تبارك وتعالى لا يكلف نفساً إلَّا وسعها ، فمسئولية الإنسان تتحصر في نطاق ما يدخل في وسعه ، وما يستطيعه من عمل ، أما ما هو خارج عن وسع الإنسان واستطاعته ، فليس عليه مسئولية نحوه ، يضاف إلى ذلك أنَّ نسبة المسئولية تتناسب طردياً وعكساً مع مقدار الاستطاعة ...

فما كان من الطباع الفطرية قابلاً للتعديل والتبديل ، ولو في حدود نسب جزئية ، لدخوله تحت سلطان إدارة الإنسان وقدرته ، كان خاضعاً

للمسئولية، وداخلاً في إطارها تجاه التكاليف الربانية، وما لم يكن قابلاً للتعديل والتبديل، لخروجه عن سلطان إرادة الإنسان وقدرته، فهو غير داخل في إطار المسؤولية تجاه التكاليف الربانية .

وبناء على ذلك فإننا نقول وفق المفاهيم الدينية: لو لم يكن لدى كلِّ إنسان عاقل قدرة على اكتساب حدٍّ ما من الفضائل الأخلاقية ؛ لما كلفه الله ذلك .

وليس أمر قدرة الإنسان على اكتساب حدٍّ ما من كلِّ فضيلة خلقية بعيداً عن التصور والفهم، ولكنه بحاجة إلى مقدار مناسب من التأمل والتفكير.

أليست استعدادات الناس لأنواع العلوم المختلفة متفاوتة، فبعضهم أقدر على تعلم الفنون الجميلة من بعض، وبعضهم أقدر على تعلم العلوم العقلية من بعض، وبعضهم أقدر على حفظ التواريخ والحوادث أو حفظ النصوص من بعض؟

إنه ... ما من إنسان عاقل إلا ولديه قدرة على اكتساب مقدار ما من فضائل الأخلاق، وفي حدود هذا المقدار الذي يستطيعه يكون تكليفه، وتكون مسئوليته، ثم في حدوده تكون محاسبته ومجازاته.

إنَّ أسرع الناس استجابة لانفعال الغضب، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقداراً ما من خلق الحلم، ومتى صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه، لذلك فهو مسئول عن اكتساب ما يستطيعه منه، فإذا هو أهمل تربية نفسه، وتركها من غير تهذيب تنمو أشواك الغاب، فإنه سيحاسب على إهماله، وسيجني ثمرات تقصيره .

وإن أشد الناس بخلًا وأنانية وحبًا للتملك، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقدارًا ما من خلق حب العطاء، ومتى صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه، لذلك فهو مسئول عن اكتساب القدر الواجب شرعًا منه، فإذا هو أهمل تربية نفسه، وتركها من غير تهذيب فإنه سيحاسب على إهماله، وسيجني ثمرات تقصيره .

والمفطور على نسبة كبيرة من الجبن، يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم مقدارًا ما من خلق الشجاعة، قد لا يبلغ به مبلغ المفطور على نسبة عالية من الشجاعة، ولكنه مقدار يكفي لتحقيق ما يجب عليه فيه أن يكون شجاعًا، وضمن الحدود التي هو مسئول فيها .

وأشد الناس أنانية في تكوينه الفطري، يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم مقدارًا ما من الغيرية والإيثار، قد لا يبلغ فيه مبلغ المفطور على محبة الآخرين، والرغبة بأن يؤثرهم على نفسه، ولكنه مقدار يكفي لتأدية الحقوق الواجبة عليه تجاه الآخرين .

وهكذا نستطيع أن نقول : إن أية فضيلة خلقية، باستطاعة أي إنسان عاقل، أن يكتسب منها بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم، المقدار الذي يكفي لتأدية واجب السلوك الأخلاقي. (١)

### كيف يزكى الإنسان نفسه؟

فإذا عدنا إلى سؤال : هل بمقدور الإنسان أن يزكى نفسه ويطهرها من فجورها ؟

(١) موسوعة الأخلاق مؤسسة الدرر السنية ١٤٣٦ هـ

والإجابة بالطبع نعم في وسعه وإلا ما كلفه الله تعالى بهذا فالله تعالى لا يكلف بمستحيل إنما يكون التكليف في إطار الوسع والمستطاع .  
﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾  
[البقرة : ٢٨٦]

فباستطاعة الإنسان أن يزكى نفسه من شرورها وبمقدوره أن يحليها بمكارم الأخلاق فإن فعل هذا فقد أفلح .

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [ الشمس : ٧-١٠ ] .

أي أفلح وفاز من زكى نفسه بطاعة الله، وصالح الأعمال، وخاب من دس نفسه في المعاصي .

وكثير من الناس من يعتذر عن سوء خلقه بسوء طبعه وأنه هكذا خلقه الله ولا حيلة له في سوء خلقه وكأن سوء الخلق غريزة تتأبى على المجاهدة والتغيير ، والحقيقة أنه إذا قوى الإيمان في القلب سهل على الإنسان تزكية طبعه الذي جبل عليه ومجاهدة نفسه الأمارة بالسوء ، أما من ساء خلقه فاعلم أنه لا إيمان له ، فبقدر الإيمان يكون حسن الخلق وفي ذلك يقول النبي : " إِنَّ أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ، وَإِنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ لِيَبْلُغُ دَرَجَةَ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ " [ صحيح البزار ] .

فكمال الإيمان يوجب حسن الخلق .

ولو كان حسن الخلق غريزة لا اكتساب فيها ما أمر الرسول ﷺ به فعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ : " اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتُ ، وَاتَّبِعِ

السَّيِّئَةُ الْحَسَنَةُ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنِ " [رواه أحمد والترمذى والدارمى ] .

إِذْنِ الْإِنْسَانِ بِمَقْدُورِهِ تَغْيِيرَ خُلُقِهِ فَعَنِ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ " الْعِلْمُ بِالتَّعْلَمِ وَالْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ وَمِنْ يَنْحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَّهِ " [ صححه الألباني ] .

وَاللَّهُ تَعَالَى يَعْينُ مَنْ يَجَاهِدُ نَفْسَهُ وَيَسْعَى لِتَغْيِيرِ خُلُقِهِ : " مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَلَنْ تُعْطُوا عَطَاءَ خَيْرًا أَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ " [ صحيح أبي داود ] .

قال القرطبي : " الْخُلُقُ جِبِلَّةٌ فِي نَوْعِ الْإِنْسَانِ ، وَهَمَّ فِي ذَلِكَ مَتَقَاوَتُونَ ، فَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا إِنْ كَانَ مَحْمُودًا وَإِلَّا فَهُوَ مَأْمُورٌ بِالْمُجَاهَدَةِ فِيهِ حَتَّى يَصِيرَ مَحْمُودًا ، وَكَذَا إِنْ كَانَ ضَعِيفًا فَيُرْتَضَى صَاحِبُهُ حَتَّى يَقْوَى " (١) .

وأثبت علم النفس المقارن أن غرائز الإنسان أقل ثباتاً وأكثر قابلية للتغيير عن غرائز الحيوان . وقد باشر الإنسان سلطانه على الحيوانات المتوحشة فصارت بالترويض طيعة مستأنسة . والقرآن من جانبه يقرر قدرة الإنسان المزدوجة على أن يطهر كيانه الجواني أو يفسده ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [ الشمس : ٩ ، ١٠ ] وإذا كانت بعض عناصر الطبع تستعصي على أي تطوير أو تقدم ، فتستبعد من مجال أي إلزام أو مسئولية كأن يكون المرء بطبيعته حزيناً أو مرحاً ،

(١) نقلاً عن ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ١٠ ص ٤٥٩

متشائماً أو متفائلاً فهو ليس مسئولاً عن شذوذه النفساني شأن المريض عن عيوبه الجسمية .

ومهمة الأديان والشرائع أن تجعل صفات النفس في حالة توازن ووسطية حتى تؤدي دورها المنوط بها في عبادة الله وعمارة الأرض فمثلاً الإنفاق إن زاد عن حد الاعتدال صار إسرافاً وتبذيراً وإن قل كان بخلًا وتقتيراً ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [ الفرقان : ٦٧ ] .

والحمية إن زادت عن حد الاعتدال صارت اندفاعاً وتهوراً وإن قلت كانت جبناً وضعفاً ... ، يقول الله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة : ١٤٣] فالفضيلة وسط بين رذيلتين . قال مطرف بن عبد الله : الحسنه بين سيئتين .

وقال الشاعر :

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعباً

ولكي يصل الإنسان إلى حسن الخلق الذي جاء الدين به فعليه أن يجاهد نفسه ولا يستسلم لصفات نفسه الدنيئة ويقدر مجاهدته للتخلي عن فجور نفسه ومجاهدته للتحلي بالتقوى يكون الأجر والثواب والمنزلة الرفيعة والدرجات ، ويقدر ما يستسلم الإنسان لرغبات نفسه وشهواتها يكون الجزاء والعقاب والمنزلة الوضيعة والدركات .

لقد جمع الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ الحالات الثلاث : الفقر والغنى والكفاف ، فكان الأول أول حالاته ﷺ فقام بواجب ذلك من مجاهدة

النفس ، ثم فتحت عليه الفتوح فصار بذلك في حد الأغنياء فقام بواجب ذلك من بذله لمستحقه والمواساة به والإيثار مع اقتصاره منه على ما يسد ضرورة عياله، وهي صورة الكفاف التي مات عليها ، وهي حالة سليمة من الغنى المَغْطَى والفقر المؤلم، وأيضاً فصاحبها معدود في الفقراء لأنه لا يترفه في طيبات الدنيا ؛ بل يجاهد نفسه في الصبر عن القدر الزائد على الكفاف ، فلم يفته من حال الفقر إلا السلامة من قهر الحاجة وذل المسألة . (١)

ويجعل النبي ﷺ صدقة الشحيح الذي يخشى الفقر ويرجو الغنى أعظم أجراً من صدقة الكريم الذي لا يخشى الفقر .  
فعن أبي هريرة قال : قال رجل يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً ؟ قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان " [ متفق عليه ]

ويجعل الله تعالى من صفات الإبرار أنهم يطعمون الطعام للمساكين والفقراء والأسرى على شدة حبهم له وحاجتهم إليه وما فعلوا هذا وخالفوا هواهم من أجل ثناء أو شكر أو مصلحة يرجونها من الناس إنما فعلوه لوجه الله تعالى .  
وقال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾ [ الإنسان : ٨-٩ ] .  
بل يجعل الله تعالى شرط نوال الإنسان البر هو الإنفاق مما يحب ويحرص عليه .

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ١١ ص ٢٧٤ .

وقال تعالى: ﴿لَنْ تَتَالَوْا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [ آل عمران : ٩٢ ] .

ويمتدح الله تعالى الأنصار الذي آووا ونصروا وأجاروا المهاجرين وقدموهم على أنفسهم .

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [ الحشر : ٩ ] .

أهناك خلق أرفع من هذا ؟ أهناك خلق أرفع من أن تؤثر أخاك على نفسك فيما أنت محتاج إليه ؟!

ولا توجد نفس بشرية إلا وقد خلقها الله تعالى صالحة لفعل الخير والشر .

وعلى المؤمن الذي ابتلى بصفة ذميمة أن يجاهد هذه الصفة ولا يستسلم لها فيجاهد الجبن بالجهاد في سبيل الله وقول الحق ، ويجاهد البخل بالإكثار من الصدقات ، والأناية بتقديم يد المساعدة لغيره ففي مجاهدة صفات النفس الذميمة يكون الفلاح والفوز بالجنة .

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [ الشمس : ٩ ] .

ولن يتغلب الإنسان على فجور نفسه إلا بالإيمان القوى بالله والاعتصام بحبله المتين ، ومخالطة أهل التقوى والصلاح ، ومعرفة أن الدين حسن الخلق ، وأن سوء الخلق طريق جهنم وإن صام وصلى ، أما من استسلم لفجور نفسه ولم يجاهد صفات الشر فيها واتبع هواها ، وخالط أهل الفسق والفجور فهذا هو الخاسر الخائب .

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [ الشمس : ١٠ ] .

ويجب أن يكون الإنسان متيقظاً لنفسه في كل وقت وحين ، فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيات .

### المقصود بجهاد النفس ؟ وكيفيته ؟

المقصود بجهد النفس ، جهاد الصفات المذمومة في النفس الإنسانية ولا يقصد به المعنى العام للنفس الذي يعنى ذات الإنسان التي توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها والتي تنقسم إلى : مطمئنة ، ولوامة ، وأمارة .

يقول النبي ﷺ : " وَأَفْضَلُ الْجِهَادِ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " [ صحيح الطبراني ] .

إن مجاهدة النفس أفضل من جهاد الكفار والمنافقين والفجار لأن الشيء إنما يفضل ويشرف بشرف ثمرته وثمره مجاهدة النفس الهداية ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [ العنكبوت : ٦٩ ] وكفي به فضلاً وقد أمر الله بمجاهدة النفس فقال : ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [ الحج : ٧٨ ]<sup>(١)</sup>

أما عن كيفية مجاهدة النفس فيكون بإلزامها ما يخالف هواها فإن كانت مُحبة للمال فأكثر من الصدقة ، وإن كانت مُحبة للكبر فخالط الفقراء والمسكين ...

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ " [ متفق عليه ] .

المراد بالشديد هنا: شدّة القوة المعنوية وهي مجاهدة النفس وإمساكها عند الشر ومنازعتها للجوارح للانتقام ممن أغضبها، فإن النفس في حكم

(١) الإمام المناوى " فيض القدير شرح الجامع الصغير " ج ٢ ص ٦٣ .

الأعداء الكثيرين، وغلبتها عما تشتهي في حكم من هو شديد القوة في غلبة الجماعة الكثيرين فيما يريدونه منه .

وفيه إشارة إلى أن مجاهدة النفس أشدّ من مجاهدة العدوّ لأنه ﷺ جعل الذي يملك نفسه عند الغضب أعظم الناس قوّة. وحقيقة الغضب حركة النفس إلى خارج الجسد لإرادة الانتقام. والحديث فيه إرشاد إلى أن من أغضبه أمر وأرادت النفس المبادرة إلى الانتقام ممن أغضبه أن يجاهدها ويمنعها عما طلبت <sup>(١)</sup> .

ويضرب رسول الله ﷺ لنا الأمثلة في كيفية مغالبة الطبع السيئ ، فعن أبي هريرة أن رجلاً شكّا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال : " امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين " [ رواه أحمد ] .

وعن ربيعة بن كعب قال كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي سل فقلت أسألك مرافقتك في الجنة . قال أو غير ذلك؟ قلت هو ذاك . قال فأعنى على نفسك بكثرة السجود " [رواه مسلم] " فأعنى على نفسك " أي كن لي عوناً في إصلاح نفسك وجعلها طاهرة مستحقة لما تطلب فإنني أطلب إصلاح نفسك من الله تعالى وأطلب منك أيضاً إصلاحها بكثرة السجود لله فإن السجود كاسر للنفس ومذل لها وأي نفس انكسرت وذلت استحققت الرحمة والله تعالى .

وهناك قصة جميلة عن الصحابي الجليل ثابت بن قيس فقد كان هذا الصحابي مجبولا على بعض الصفات الذميمة مثل جهر الصوت بحضرة النبي ، وحب السيادة على قومه ، وحب الاختيال والفخر ،

(١) الصنعاني " سبل السلام " ج ٤ ص ١٨٣ .

وكان الرجل مؤمناً حقاً فظل يجاهد هذه الصفات حتى تخلص منها وبشره النبي بالجنة وأكرمه الله تعالى فاستشهد في معركة اليمامة واليك قصته .

قال عطاء الخراساني: حدثتني ابنة ثابت بن قيس قالت: لما نزلت : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [ الحجرات : ٢ ] دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ، ففقدته النبي ﷺ فأرسل إليه يسأله ما خبره ، فقال : أنا رجل شديد الصوت، أخاف أن يكون حبط عملي. فقال ﷺ : " لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير " . قال: ثم أنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [ لقمان: ١٨ ] فأغلق بابه وطفق يبكي، ففقدته النبي ﷺ فأرسل إليه فأخبره، فقال: يا رسول الله، إني أحب الجمال وأحب أن أسود قومي. فقال: " لست منهم بل تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة " . قالت: فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة فلما التقوا انكشفوا، فقال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ثم حفر كل واحد منهما له حفرة فثبنا وقاتلاً حتى قتلاً [ رواه الطبراني (١) ]

أرأيتم كيف أن الصحابي الجليل ثابت بن قيس قد جاهد نفسه ولم يستسلم لصفاتها الذميمة فعاش حميداً ومات شهيداً ؟

### إجمال الشروط اللازمة لقيام المسؤولية أمام الله

إن الشروط اللازمة والكافية لقيام المسؤولية أمام الله وأمام أنفسنا هي أن يكون العمل شخصياً ، إرادياً ، ثم بحرية ( أي بدون إكراه ) وبوعي كامل ، وعن معرفة بالشرع ؛ فالمسؤولية ترتبط ارتباطاً وثيقاً ووظيفياً

(١) ورواه القرطبي في تفسيره ج ١٦ ص ٣٠٥ .

بالشخصية الإنسانية ، ولا يستطيع أن يتحملها سوى الإنسان البالغ العاقل ، الواعي بتكاليفها التي يتمثلها أمام نظره وقت أداء العمل . فإذا ما تحدد الشخص ، يكون بعد ذلك مسئولاً عن الأفعال التي يؤديها بإرادته الحرة . لأن الإرادة والحرية مترادفان من الناحية العملية . ولا توجد أية قوة في الطبيعة - ظاهرة أو باطنة - تستطيع أن تحرك أو توقف النشاط الداخلي لإرادة الإنسان .

... وأخيراً فإن المبدأ القرآني للمسئولية ذو نزعة فردية ، يستبعد كل مسئولية موروثية أو جماعية بمعناها الحقيقي .

### مراتب الناس في قبولها تهذيب الأخلاق

الناس ليسوا سواء بالنسبة لتهذيب الأخلاق وتزكية النفس إنما هم أنواع ومراتب يبينها لنا أبو حامد الغزالي فيقول : " اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استنقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تتغير .

والناس بالنسبة لتهذيب الأخلاق على أربع مراتب :

١- المرتبة الأولى : الإنسان الذي بقي على أصل الفطرة ولم تتسم شهوته باتباع اللذات ، فهذا سريع القبول للعلاج جداً فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد ، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان .

٢- المرتبة الثانية : الإنسان الذي عرف قبح القبيح ، ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زُين له سوء عمله فتعاطاه انقياداً لشهواته وإعراضاً

عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه، ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه ؛ إذ عليه التخلّي أولاً عن سوء خلقه واعتياد الفساد، ثمّ التخلّي بعد ذلك بحسن الخلق واعتياد الصلاح . وهذا الإنسان يمكنه النهوض بذلك إذا جدّ في ذلك وعزم عليه عزمًا صادقاً .

٣- المرتبة الثالثة : الإنسان الذي يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المُستَحْسَنَة وأنها حقٌّ وجميل وترتّب عليها، فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا في حالات نادرة ، وذلك لتضاعف أسباب الضلال.

٤- المرتبة الرابعة : الإنسان الذي يكون مع نشئه على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر وفعل المنكر ويباهي به ويظن أن ذلك يرفع قدره، وهذا هو أصعب المراتب.

والأول : من هؤلاء جاهل فقط . والثاني: جاهل وضال . والثالث: جاهل وضال وفاسق . والرابع: جاهل وضال وفاسق وشرير .<sup>(١)</sup>

### هل قمع الشهوة والغضب وحب الدنيا بالكلية واجب ؟

وبعض فاسدي الخلق يزعمون أن دعاة إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس يريدون قمع الشهوة والغضب وحب الدنيا بالكلية مع أن الشهوة والغضب وحب الدنيا فطرة إنسانية وطَبْعٌ بَشَرِيٌّ لا طاقة لإنسانٍ سويٍّ أن يَقْمَعَها ويمحوها بالكلية ، ويرد الغزالي على هؤلاء فيقول : " قولهم إن الآدمي ما دام حياً فلا تتقطع عنه الشهوة والغضب وحب

(١) أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " ج ٣ ص ٥٨ بتصرف .

الدنيا وسائر هذه الأخلاق، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات! فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الجماع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهك .

ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك عن إمساك المال. وليس المطلوب إمالة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط .

والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً. وبالجملة أن يكون في نفسه قوياً ومع قوته منقاداً للعقل. ولذلك قال الله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد .

وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك، إذ قال ﷺ " إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ . أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ . وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ " [صحيح مسلم] . وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاً فكان ﷺ لا يخرج غضب عن الحق وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه، بل يكون العقل هو الضابط لهما

والغالب عليهما ممكن، وهو المراد بتغيير الخلق فإنه ربما تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها فيقدم على الانبساط إلى الفواحش. وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال فدلّ أن ذلك ممكن، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعاً، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير. وقد أثنى الله تعالى عليه فقال: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧] وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩] وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود قال الله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١] وقال ﷺ "خير الأمور أوسطها" [إسناده صحيح موقوف] وهذا له سر وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم. قال الله تعالى ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٩] والبخل من عوارض الدنيا، والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا، وشرط القلب أن يكون سليماً منهما أي لا يكون ملتقياً إلى المال ولا يكون حريصاً على إنفاقه ولا على إمساكه، فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك فكان كمال القلب أن يصفوا عن الوصفين جميعاً. وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط، فإن الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين. فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير. والشجاعة بين الجبن والتهور.

والعفة بين الشره والجمود. وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفي الأمور  
ذميم؛ هذا هو المطلوب وهو ممكن. (١)

### المقصود بدم الدنيا

وإذا كان هناك من يزعم أن حب الدنيا فطرة إنسانية وطبع بشري لا  
طاقة لإنسانٍ سوى أن يقمعها ويمحوها بالكلية وقد ذكرنا رد الغزالي  
على هؤلاء فإن هناك من يدعو إلى ترك الدنيا والتفرغ للعبادة ويستشهد  
بالآيات القرآنية الواردة في ذم الدنيا وكذلك الأحاديث الشريفة في تأكيد  
ذلك .

والدنيا المذمومة في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة هي دنيا الكافر  
الذي آمن بها وكفر بالآخرة ، ودنيا المسلم العاصي الذي انشغل بها  
عن الآخرة هؤلاء وأولئك الذين يقول الله تعالى فيهم : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ  
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ  
فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [ إبراهيم : ٣ ] . ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ  
وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [الإنسان : ٢٧] . ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ  
الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ [ القيامة : ٢٠ - ٢١ ] .

وتحدّث القرآن الكريم في كثير من الآيات عن قصر الدنيا وسرعة  
انقضائها، وبيّن حقيقتها، وحقارة ما فيها من المتاع، وضرب لذلك  
الأمثال، وبيّن أن أجل الإنسان فيها محدود لا يتقدّم أو يتأخّر .

والمتملّ في سير الناس في هذه الحياة الدنيا يجد انغماس الناس في  
ملذاتها وشهواتها، رغم ما ورد في القرآن الكريم من التحذير من

(١) أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " ج ٣ ص ٥٨ بتصرف .

الاعتزاز بها وبمتاعها الزائل، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

والمقصود بحب الدنيا المذموم هو الحب الذي يدفع صاحب الدنيا إلى فعل المحظورات والمنهيات، وترك القربات والطاعات، وفعل الصالحات، فالمذموم أن تكون الدنيا بالقلب لا باليد.

والمقصود بحب الدنيا أن تكون الدنيا مالكة له ومتصرفه فيه، لا هو مالك الدنيا ومتصرف فيها .

وهنا نريد أن نُنبِّه على أمر مهم قد غفل عنه كثير من الناس، وهو ما يفهمه بعض الناس من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وما ورد عن السلف من ذم للدنيا والترهيد فيها، والإعراض عنها، بأن المقصود من ذلك هو ترك الدنيا والسعي فيها، والإعراض الكلي عنها، والترهيد بكل ما فيها.

وهذا الفهم غير صحيح؛ لأن المسلم مطالب شرعاً بالاستخلاف في الأرض وعمارتها، والسعي فيها بل كل ما ينفع الأمة ويخدمها، ويخدم البشرية قاطبة في سائر المجالات العلمية والصناعية النافعة.

فالمقصود أن تجعل الدنيا مزرعة تحصد ثمارها في الآخرة، يصرف الدنيا في طاعة الله تعالى، والعمل الصالح، وعمارتها حسب ما أمر الحق تبارك وتعالى من الاستخلاف فيها، بما ينفع الدين والدنيا.

وهذا الفهم القاصر -لأسف الشديد- أن الدنيا ليست من نصيب المؤمن بل هي من نصيب الكافر، وهي دار له، وليست دار للمسلم لعله من أهم الأسباب التي أدت إلى تراجع المسلمين، في سائر الميادين اليوم، وفي شتى العلوم، وما أجمل أن يجتمع في المسلم الدين والدنيا، فيكون ذات دين وخلق، وصاحب مال يستعمله وفق مراد ربه وخالفه، فهذا أمر مطلوب مرغوب فيه، مندوب إليه، وبذلك وردت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والدين الإسلامي لا يدعو إلى كبت الشهوات وقتلها، بل إلى ضبطها وتنظيمها، فهو يراعي الفطر، وما جُبِلَ عليه الإنسان من حب المال والبنين. (١)

ومن المفاهيم التي اختلطت على كثير من الناس الفرق بين التوكل والتواكل فإذا كان التوكل من صفات المؤمنين التي يجب التحلي بها فإن التواكل من صفات العصاة التي يجب التخلي عنها يقول تعالى :  
في صفات المؤمنين : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]  
ويقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٤٢]  
والتوكل معناه صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المصالح ودفع المضار ، وتقويض الأمور كلها لله ، مع الاعتماد أنه لا يعطي ولا يمنع ، ولا يضر ولا ينفع سواه سبحانه وتعالى ، فالمؤمن يتوكل على الله عز وجل ويأخذ في الأسباب المؤدية لإتمام الأعمال دون الاعتماد عليها ، فالأخذ في الأسباب لا ينافي التوكل أما من يدعي

(١) خالد حسن محمد البعداني " حب الدنيا وإيثارها على الآخرة " موقع جامعة الإيمان .

التوكل على الله تعالى دون السعي والعمل فليس من التوكل في شيء وإنما هو اتكال أو تواكل حذرنا النبي ﷺ منه ومن الأسباب المؤدية إليه؛ فما وصل السلف الصالح إلى ما وصلوا إليه إلا بعلو همهم وقوة عزائمهم ، لذلك فإن الأمة اليوم في أمس الحاجة إلى المخلصين من أبنائها الذين يواصلون الليل بالنهار والسير بالسري ، يقومون على البذل والعطاء في سبيل ارتفاع شأن أمتهم وتقدم أوطانهم ، ويغيرون مجرى الحياة بعلو همتهم وقوة عزيمتهم .

وسوف نعود إلى هذا الموضوع لنزيده تفصيلاً في الفصل الثامن عند حديثنا عن التواكل والسلبية كأحد أسباب تخلف المسلمين في العصر الحديث .

\*\*\*

## الفصل السادس

## الجزء



## الجزاء

### العقوبات على الجرائم الأخلاقية

إن أي قانون وضعي لا يترتب على احترامه أو الخروج عليه جزاء قانون لا قيمة له فالشعور بالمتعة نتيجة للالتزام بالقانون - إن كان للالتزام به متعة - والشعور بالألم، إن نتج عن الخروج عليه ندم ، لا يكفيان للالتزام الناس بالقانون .

وإن كان الأمر بالنسبة للقوانين الإلهية : أوامر الله تعالى ونواهيه مختلف عن القوانين الوضعية فإن طاعة الله والالتزام بأوامره تسعد المؤمن ، والوقوع في المعصية تسوؤه " إذا سَرَّتْكَ حَسَنَتُكَ ، وسَاءَتْكَ سَيِّئَتُكَ ، فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ " [ صححه الألباني ] .

ولكن الله تعالى لم يترك الالتزام بنظامه الأخلاقي لضمائر الناس وأهوائهم في الدنيا وأُخِّرَ لهم الجزاء في الآخر إنما الله تعالى رَتَّبَ عقوبات دنيوية وأخرى أخروية للمخالفين لأخلاق الإسلام فقد جعل هناك عقوبات دنيوية حتى لا تشيع الفاحشة فمن أمن العقاب أساء الأدب فجعل الله تعالى بعض العقوبات على بعض الجرائم الأخلاقية التي لو تركت بغير عقاب رادع في الدنيا تَفَشَّتْ وأفسدت المجتمع كله ومن تلك العقوبات الدنيوية الحدود التي نص عليها الإسلام وحدد لها

نوع العقوبة ومقدارها ، أما الجرائم الأخلاقية الأخرى غير المنصوص عليها في الحدود فقد ترك الإسلام لولي الأمر تحديد العقوبات المناسبة لها فيما يسمى في الفقه بالتعزيرات .

### الحدود :

تعريفها: الحدود جمع حد ، وهو : الشيء الحاجز بين شيئين .  
وفي الفقه عقوبة مقدرة وجبت على الجاني ، وحدود الله تعالى : ما حده بأوامره ونواهيه . (١)

وسميت عقوبات المعاصي الأخلاقية حدوداً ؛ لأنها في الغالب تمنع العاصي من العود إلى تلك المعصية التي حُدَّ لأجلها .

وقد قرَّر الإسلام : الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة تسمى " جرائم الحدود " وهذه الجرائم هي : " الزنا ، والقذف ، والسرقه ، والسُّكر ، والمحاربة ، والرَّدة ، والبغي ( القتل ) " .

فعلى من ارتكب جريمة من هذه الجرائم عقوبة محددة قررها الشارع .  
فعقوبة جريمة الزنا ، الجلد للبكر (العذراء) ، والرجم للثَّيب (غير البكر) .  
يقول تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾

[النور: ٢]

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ " [ صحيح مسلم ]

(١) مجمع اللغة العربية " المعجم الوجيز " .

وعقوبة جريمة القذف ثمانون جلدة .

يقول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور : ٤]

وعقوبة جريمة السرقة قطع اليد .

يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة : ٣٨]

وعقوبة جريمة السكر (شرب الخمر)، ثمانون جلدة ، أو أربعون على خلاف بين المذاهب .

وعقوبة الردة القتل، لقول رسول الله ﷺ " مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ " [رواه أحمد والنسائي والبيهقي ] .

وعقوبة جريمة البغي القتل .

لقول الله سبحانه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]

ولقول رسول الله ﷺ : " سَتَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمْ جَمْعٌ فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ "[صحيح النسائي] .

وعقوبة جريمة الفساد في الأرض: القتل، أو الصلب، أو النفي، أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة : ٣٣] .

ولقد ألحق علماء الإسلام ولجان الفتوى ومراكز دراسات الشئون الإسلامية الإرهاب بحد المحاربة والفساد في الأرض ، وسوف نذكر بشيء من التفصيل أهم ما قيل بشأن الإرهاب .

### الإرهاب في اللغة . والقرآن الكريم .

أتى الإرهاب في اللغة العربية من الفعل (رَهَب ، يُرْهَب ، رَهْبَةً) أي خاف ، وَرَهَبَهُ أي خَافَهُ . وَالرَّهْبَةُ هي الخوف والفرع وهو راهب من الله أي خائف من عقابه ، وَتَرَهَّبَهُ أي تَوَعَّدَهُ .

ويأتي في القرآن الكريم الإرهاب بنفس معناه في اللغة فيأتي بمعنى الفرع والخوف ، والخَشْيَةُ ، والرَّهْبَةُ من عقاب الله تعالى ، يقول تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠] ، ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١] ويقول جلَّ شأنه : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] .

كما يأتي الإرهاب في القرآن الكريم بمعنى الرَّدع العسكري فيقول تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠] ويقول سبحانه : ﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَزْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦] .

### الإرهاب في التشريع المصري

جاء في مادة ٨٦ من قانون العقوبات الذي وافق عليه مجلس القضاء الأعلى بتاريخ ٦ / ٧ / ٢٠١٥ : " يقصد بالإرهاب في تطبيق أحكام

هذا القانون كل استخدام للقوة أو العنف أو التهديد أو الترويع ، يلجأ إليه الجاني تنفيذاً لمشروع إجرامي فردي أو جماعي ، بهدف الإخلال بالنظام العام أو تعريض سلامة المجتمع وأمنه للخطر ، إذا كان من شأن ذلك إيذاء الأشخاص أو إلقاء الرعب بينهم أو تعريض حياتهم أو حرياتهم أو أمنهم للخطر ، أو إلحاق الضرر بالبيئة أو بالاتصالات أو المواصلات أو بالأموال أو بالمباني أو بالأماكن العامة أو الخاصة أو احتلالها أو الاستيلاء عليها أو منع أو عرقلة ممارسة السلطات العامة أو دور العبادة أو معاهد العلم لأعمالها ، أو تعطيل تطبيق الدستور أو القوانين أو اللوائح .

مادة ٨٦ مكرراً : وتتص على "يعاقب بالسجن كل من أنشأ أو أسس أو نظم أو أدار ، على خلاف أحكام القانون جميعه أو هيئة أو منظمة أو جماعة أو عصابة ، يكون الغرض منها الدعوة بأية وسيلة إلى تعطيل أحكام الدستور أو القوانين أو منع إحدى مؤسسات الدولة أو إحدى السلطات العامة من ممارسة أعمالها ، أو الاعتداء على الحرية الشخصية للمواطن أو غيرها من الحريات والحقوق العامة التي كلفها الدستور والقانون ، أو الإضرار بالوحدة الوطنية أو السلام الاجتماعي ويعاقب بالأشغال الشاقة المؤقتة كل من تولى زعامة أو قيادة ما فيها أو أمدّها بمعونات مادية أو مالية مع علمه بالغرض الذي تدعوا إليه " ذا "يعاقب بالسجن مدة لا تزيد على خمس سنوات كل من انضم إلى إحدى الجمعيات أو الهيئات أو المنظمات أو الجماعات ، أو العصابات المنصوص عليها في الفقرة السابقة ، أو شارك فيها بأية صورة ، مع علمه بأغراضها، ويعاقب بالعقوبة المنصوص عليها بالفقرة

السابقة كل من روج بالقول أو الكتابة أو بأية طريقة أخرى للأغراض المذكورة في الفقرة الأولى ، وكذلك كل من حاز بالذات أو بالواسطة أو أحرز محررات أو مطبوعات أو تسجيلات ، أيا كان نوعها ، تتضمن ترويجاً أو تحبيذاً لشيء مما تقدم إذا كانت معدة للتوزيع أو الاطلاع الغير عليها ، وكل من حاز أو أحرز أية وسيلة من وسائل الطبع أو التسجيل أو العلانية ، استعملت أو أعدت للاستعمال ولو بصفة وقتية لطبع أو تسجيل أو إذاعة شيء مما ذكر" (١)

### الفرق بين الجهاد والإرهاب

الجهاد في سبيل الله مفهوم إسلامي نبيل له دلالاته الواسعة في الإسلام فهو يُطْلَق على مجاهدة النفس والهوى والشيطان ويُطْلَق على قتال العدو الذي يراد به دفع العدوان وردع الطغيان ، وهذا النوع من الجهاد له شروطه التي لا يصح إلا بها : فهو من فروض الكفاية التي يعود أمر تنظيمها إلى ولاية الأمور والساسة الذين ولّاهم الله تعالى أمر البلاد والعباد وجعلهم أقدر من غيرهم على معرفة مآلات هذه القرارات المصيرية ، فإن لم يكن من أهل الحكم والسياسة فليس له أن يتكلم فيما لا يحسن ، ولا يبادر بالجهاد بنفسه وإلا عُدَّ ذلك افتتاتاً على الإمام ، وقد يكون ضرر خروجه أكثر من نفعه فيبوء بإثم ما يجره فعله من المفاسد ، ومع ما في هذا التصرف من التقصُّم في الهلكة ، وإهمال العواقب والمآلات ، والتسبب في تكالب الأمم على المسلمين ، وإبادة خضرائهم ، والولوج في الفتن العمياء والنزاعات المهلكة بين المسلمين

(١) موقع جريدة الوطن بتاريخ ٦ / ٧ / ٢٠١٥ م

والتي تفرزها قرارات القتال الفردية الهوجائية هذه ، ومن المعلوم شرعاً وعقلاً وواقعاً أن التشنت وانعدام الرؤية يُفقد القتال نظامه من ناحية ، ويذهب قيمه ونبله ويُسوّش على شرف غايته من ناحية أخرى .

أما ما يُروّج له هؤلاء الإرهابيون فهو " إرجاف " وليس جهاداً والإرجاف مصطلح قرآني ذكره الله تعالى في قوله سبحانه ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا \* مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا نُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا \* سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠- ٦٢] وهي كلمة لها مفهومها السيئ الذي يعني إثارة الفتن والاضطرابات والقلق باستحلال الدماء والأموال بين أبناء المجتمع الواحد تحت دعاوى مختلفة منها : تكفير الحاكم أو الدولة ، ومنها استحلال دماء المسلمين تحت دعوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واستحلال دماء وأموال غير المسلمين في بلادهم أو أولئك الذي دخلوا البلاد الإسلامية بدعوى أن بلادهم تحارب الإسلام ، إلى آخر تلك دعاوى الإرجاف التي يُسوّلها الشيطان للمُرجفين ، والتي كان بعضها سبباً لظهور الخوارج في زمن الصحابة ومن جاء بعدهم وشبهاً يُبررون بها إفسادهم في الأرض وسفككم للدماء المحرمة .

وهذه الأفعال من كبائر الذنوب لأنها سفك للدم الحرام وقتل لنفوس الأبرياء من المسلمين وغير المسلمين التي حرم الله إلا بالحق ، وقد عظم الشرع الحكيم دم المسلم ورهب ترهيباً شديداً من إراقتة أو المساس به بلا حق فقال تعالى ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] بل

يجعل الله تعالى قتل النفس - مسلمة أو غير مسلمة - بغير حق قتلاً للناس جميعاً فقال تعالى ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢] (١)

إن ما تقوم به الجماعات المتطرفة والتنظيمات الإرهابية الراغبة في الوصول إلى السلطة وتتخذ من القتل والتدمير وخراب الديار وسيلة للوصول إليها ليس جهاداً قولاً واحداً كما يخدعون أتباعهم وأنصارهم إنما هو إرهاب وفساد في الأرض .

### حكم القتال تحت راية عمية

والعجيب أن بعض الناس يسفكون الدماء ويخربون الديار طاعة لأمراء يسخرونهم لمصالحهم الخاصة وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا \* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [ الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤ ] فأمراء الجماعات الإرهابية يستغلون حماسة بعض الناس للدين ورغبتهم في خدمته في توجيههم لتحقيق مصالحهم الخاصة ، وإلى المخدوعين في هؤلاء الأمراء نقول : لا ينبغي القتال إلا تحت راية ولي الأمر الذي ارتضاه الناس حاكماً عليهم دفاعاً عن الوطن والدين والممتلكات العامة والخاصة ضد كل غاصب ومعتدٍ في الداخل الخارج ، ولقد حذر النبي ﷺ من القتال تحت راية عمية ، وهي الراية غير معروفة أهداف أصحابها ،

(١) من فتوى مفتى الديار المصرية د. شوقي إبراهيم علام " حكم الدعوة للجهاد في مصر ضد الجيش والدولة " موقع دار الإفتاء المصرية تاريخ الفتوى ٢٩ / ١٢ / ٢٠١٣

ومن يفعل ذلك فقد برئت من ذمة الله ورسوله وإن مات مات ميتة جاهلية .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصْبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصْبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصْبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ " [ صحيح مسلم ] .

معنى عِمِّيَّة : الأمر الذي لا يَسْتَبِينَ وجهه ، وقيل : كناية عن جماعة مجتمعين على أمر مجهول لا يعرف أنه حق أو باطل .

وقال الإمام النووي في شرح الحديث : " " عِمِّيَّة " قالوا هي الأمر الأعمى لا يستبين وجهه كذا قاله أحمد بن حنبل والجمهور قال إسحاق بن راهوية هذا كتقاتل القوم للعصبية قوله ﷺ " يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة " ومعناها أنه يقاتل لشهوة نفسه وغضبه لها وبؤيد الرواية الأولى الحديث المذكور بعدها يغضب للعصبة ويقاتل للعصبة ومعناه إنما يقاتل عصبية لقومه وهواه قوله ﷺ " وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَفِي بَعْضِ النُّسخِ يَتَحَاشَى وَمَعْنَاهُ لَا يَكْتَرِثُ بِمَا يَفْعَلُهُ فِيهَا وَلَا يَخَافُ وَبِالْهَاءِ قَوْلُهُ ﷺ " مَنْ خَلَعَ يَدَا مِنْ طَاعَةِ لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حِجَةَ لَهُ " أَي لَا حِجَةَ لَهُ فِي فِعْلِهِ وَلَا عِذْرَ لَهُ يَنْفَعُهُ . (١)

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٢ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

فعلیکم بالسواد الأعظم أي جملة الناس ومعظمهم الذين یجتمعون على طاعة السلطان وسلوك النهج المستقیم فهذا الحديث معیار عظیم لأهل السنة والجماعة شكر الله سعيهم فإنهم هم السواد الأعظم وذلك لا یحتاج إلى برهان .

### حكم الخروج على ولي الأمر

إن الخروج على ولي أمر المسلمين المسلم ، الذي استتب له الأمر في بلد من البلدان حرام بإجماع العلماء لأي سبب من الأسباب ومهما كانت الدوافع والمبررات ، وسواء أكان الخروج بالفعل أو القول أو الإعانة أو الدلالة أو الإشارة أو الرضا أو الإيواء أو السكوت أو التشجيع ، أو الكتابة أو غير ذلك . يقول الشيخ ابن باز في تفسير قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] فهذه الآية نص في وجوب طاعة أولي الأمر ، وهم الأمراء والعلماء ، وقد جاءت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ تبين أن هذه الطاعة لازمة ، وهي فريضة في المعروف . والنصوص من السنة تبين المعنى ، وتقيد إطلاق الآية بأن المراد طاعتهم في المعروف ، ويجب على المسلمين طاعة ولاية الأمور في المعروف لا في المعاصي ، فإذا أمروا بالمعصية فلا يطاعون في المعصية ، لكن لا يجوز الخروج عليهم بأسبابها ؛ لقوله ﷺ : " خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تَحِبُّونَهُمْ وَيَحِبُّونَكُمْ وَتَصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيَصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَشَرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تَبْغَضُونَهُمْ وَيَبْغَضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا تُنَابِذُهُمْ ؟ قَالَ : لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ إِلَّا مَنْ وَلِيَ

عَلَيْهِ وَالِ فَرَأَهُ شَيْئًا مِّنْ مَّعْصِيَةِ اللَّهِ فَلْيُكْرِهْ مَا يَأْتِي مِّنْ مَّعْصِيَةِ اللَّهِ وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِّنْ طَاعَةٍ " [ صحيح مسلم ] .

فهذا يدل على أنه لا يجوز منازعة ولاية الأمور، ولا الخروج عليهم إلا أن يروا كفراً بواحاً عندهم من الله فيه برهان؛ وما ذاك إلا لأن الخروج على ولاية الأمور يسبب فساداً كبيراً، وشرّاً عظيماً، فيختل به الأمن، وتضيع الحقوق، ولا يتيسر ردع الظالم، ولا نصر المظلوم، وتختل السبل ولا تأمن، فيتربط على الخروج على ولاية الأمور فساد عظيم وشر كثير، إلا إذا رأى المسلمون كفراً بواحاً عندهم من الله فيه برهان، فلا بأس أن يخرجوا على هذا السلطان لإزالته إذا كان عندهم قدرة، أما إذا لم يكن عندهم قدرة فلا يخرجوا، أو كان الخروج يسبب شرّاً أكثر فليس لهم الخروج رعاية للمصالح العامة. والقاعدة الشرعية المجمع عليها: " أنه لا يجوز إزالة الشر بما هو أشد منه، بل يجب درء الشر بما يزيله أو يخففه " أما درء الشر بشر أكثر فلا يجوز بإجماع المسلمين، فإذا كانت هذه الطائفة التي تريد إزالة هذا السلطان الذي فعل كفراً بواحاً عندها قدرة تزيله بها، وتضع إماماً صالحاً طيباً من دون أن يترتب على هذا فساد كبير على المسلمين، وشر أعظم من شر هذا السلطان فلا بأس، أما إذا كان الخروج يترتب عليه فساد كبير، واختلال الأمن، وظلم الناس، واغتيال من لا يستحق الاغتيال... إلى غير هذا من الفساد العظيم، فهذا لا يجوز، بل يجب الصبر، والسمع والطاعة في المعروف، ومناصحة ولاية الأمور، والدعوة لهم بالخير، والاجتهاد في تخفيف الشر وتقليله وتكثير الخير. هذا هو الطريق السوي الذي يجب أن يسلك؛ لأن في ذلك مصالح للمسلمين عامة، ولأن في ذلك تقليل

الشر وتكثير الخير، ولأن في ذلك حفظ الأمن وسلامة المسلمين من شر أكثر، نسأل الله للجميع التوفيق والهداية. " (١)

وهؤلاء الإرهابيون يخرجون على ولي أمر مسلم يقيم الصلاة وشعائر الإسلام مصلح فيثيرون الفتن ويروعون الناس ويزعزعون أركان الدولة ويهددون استقرارها ويدمرون اقتصادها فيفجرون طائرة تقل سائحين لضرب السياحة وهي من أهم مصادر الدخل القومي والتي يستفيد منها ملايين المواطنين ، ويفجّرون أبراج الكهرباء فتتظلم المنازل وتتوقف المصانع ، وتضار المدارس والمستشفيات ، وتعطل المصالح ، يقطعون الطرق ، والسكك الحديدية فتتوقف حركة الحياة ، ينشرون الإشاعات ، ويثيرون الفوضى .

لو كان هؤلاء أصحاب حق لسلخوا للوصول إليه الطرق الشرعية لا الطرق الإجرامية فالغاية في الإسلام لا تبرر الوسيلة خلافاً لما قاله ميكافيللي ، إنما الوسيلة تأخذ حكم الغاية في الإسلام فإذا كانت غايتك مشروعة فلا بد أن تتوصل إليه بوسائل مشروعة فلا يصح أن تسرق للتصدق .

فالغاية الشرعية لا يوصل إليها بالوسيلة الفاسدة ، فلا يوصل إلى طاعة الله بمعصيته . والغاية الشرعية تؤيد الوسيلة الشرعية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

الإرهاب بهذا المعنى محرم وممنوع شرعاً ، لأنه عدوان على الناس ، وسعي في الأرض بالفساد ، وقد قال تعالى: ﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ

(١) نقلاً عن موقع الإمام ابن باز .

نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا  
أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ  
فِي الْأَرْضِ لَمُسرِفُونَ ﴿[المائدة: ٣٢] وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي  
الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] قال القرطبي : "نهى سبحانه  
عن كل فساد قل أو كثر بعد صلاح قل أو كثر فهو على العموم على  
الصحيح من الأقوال" .

### حكم المرجفون المفسدون في الأرض

أما عقوبة من قام بشيء من تلك الأعمال الإجرامية التي يقوم بها  
الإرهابيون فتختلف ولكنها قد تصل إلى القتل إذا كان من أعمال  
الحرب أو يفوقها في الشر والضرر ، وقد صدر عن هيئة كبار العلماء  
في المملكة العربية السعودية عام ١٤٠٩ هـ " قرار رقم ١٤٨ " بيان  
لعقوبة من قام بأعمال تخريبية جاء فيه: " من ثبت شرعاً أنه قام بعمل  
من أعمال التخريب والإفساد في الأرض التي تزعم الأمن بالاعتداء  
على الأنفس والممتلكات الخاصة أو العامة كنسف المساكن أو المساجد  
أو المدارس أو المستشفيات والمصانع والجسور ومخازن الأسلحة والمياه  
والموارد العامة لبيت المال كأنايب البترول ، ونسف الطائرات أو  
خطفها ونحو ذلك ، فإن عقوبته القتل لدلالة الآيات المتقدمة على أن  
مثل هذا الإفساد في الأرض يقتضي إهدار دم المفسد ؛ ولأن خطر  
هؤلاء الذين يقومون بالأعمال التخريبية وضررهم أشد من خطر وضرر  
الذي يقطع الطريق فيعتدي على شخص فيقتله أو يأخذ ماله ، وقد حكم  
الله عليه بما ذكر في آية الحربة " (١) .

(١) مجلة البحوث العلمية العدد الرابع والعشرون ١٤٠٩ هـ ، ص ٣٨٦ .

أما دار الإفتاء المصرية فتتص فتواها في الحكم على هؤلاء : " والحكم يختلف تبعاً لاختلاف المفهوم ؛ فهذا القتل والترويع وتدمير الممتلكات داخل المجتمع المسلم يُسمّى عند الفقهاء بالحاربة ، والحاربة هي قطع الطريق أو الإساد في الأرض ، والمتلبس بها مستحق لأقصى عقوبات الحدود من القتل والسرقة والزنا لأنه إفساد منظم يتحرك صاحبه ضد المجتمع قال تعالى ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣] فإذا اقترن هذا بتكفير الناس وكان لأصحابه منعة وشوكة فإن أصحابه يكونون حينئذ " خوارج " و " بغاة " يجب قتالهم حتى تنكسر شوكتهم ويفيئوا إلى الحق ويرجعوا إلى جماعة المسلمين كم قال تعالى ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَفْسِدُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الحجرات: ٩] قال الإمام الشافعي فيما حكاه الحافظ البيهقي في " السنن الكبرى " " أم الله بقتال الفئة الباغية وأمر بذلك رسول الله وليس القتال من القتل بسبيل ؛ قد يجوز أن يحل قتال المسلم ولا يحل قتله ، كما يحل جرحه وضربه ولا يحل قتله " .

فما تفعله هذه التنظيمات من أفعال التخريب والقتل التي أفرزتها مناهج الإرجاف الضالة حرام شرعاً وهو من أشد أنواع البغي والفساد الذي جاء الشرع بصدده بل وقتال أصحابه إن لم يرتدعوا عن إيذائهم للمسلمين ولغير المسلمين مواطنين مستأمنين ، وتسميته جهاداً ما هو إلا تدليس

وتلبس حتى ينطلي هذا الفساد والإرجاف على ضعاف العقول ، بل هذا بغي الحق يعد أصحابه بغاة وخوارج يُقَاتَلُونَ إن كانت لهم منعة وشوكة حتى يرجعوا عن بغيهم وإرجافهم .

وقد نص العلماء أنه لو تعارضت المصلحة مع المفسدة فإن دفع المفسدة مقدّم على جلب المصلحة ، وكلام علمائنا هذا في المصالح المحققة فكيف إذا كانت المصلحة متوهمة أو معدومة ؟ (١)

### كيفية مواجهة الإرهابيين أعداء الوطن

أن ظاهرة الإرهاب هي نتاج عدد من العوامل النفسية والاجتماعية والظروف السياسية والاقتصادية والثقافية . ومن ثم فإن أية معالجة جادة لهذه الظاهرة تتطلب إصلاحاً حقيقياً في جملة هذه العوامل والظروف التي تساعد على تفريخ المتطرفين والإرهابيين . وفهم ظاهرة الإرهاب في أي مجتمع ، يتطلب فهم الواقع الاجتماعي وإدراكه ، حتى يتسنى لنا معرفة الآلية التي تنتج هذه الظاهرة . والجدير بالذكر أن المجتمعات التي يكون فيها حد من المساواة والعدالة وتتسع فيها المشاركة في تقاسم الإنتاج والثروة ، وفي تقاسم السلطة ، وتعيش في وضع اقتصادي مستقر ، يصعب فيها وجود ظاهرة العنف والإرهاب .

إن معالجة الإرهاب لا تتم بمضاعفة قمع الرأي الآخر وإنفاق المزيد من الثروات على تسليح قوات مكافحة الإرهاب بأحدث معدات القتال ، بل بالوقوف على الأسباب الحقيقية ومعالجة الأمر بالحكمة والموضوعية .

(١) من فتوى مفتى الديار المصرية د. شوقي إبراهيم علام " حكم الدعوة للجهاد في مصر ضد الجيش والدولة " موقع دار الإفتاء المصرية تاريخ الفتوى ٢٩ / ١٢ / ٢٠١٣

ولا يمكن أن ينتهي العنف في وطننا العربي وعالمنا الإسلامي إلا بقيام البدائل الديمقراطية التي تركز على مؤسسات دستورية تحترم المواطن وتشاركه القرار وترفع مستواه الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وتقلل الفوارق الطبيعية وتحل السلام الاجتماعي . ومما لا شك فيه أن دخول العرب والمسلمين إلى نادي الديمقراطية أو الشورى هو السبيل الوحيد ليأخذوا مكانتهم اللائقة في هذا العالم .

ومن المؤسف أن يكون المدخل الأمني هو المدخل السائد والوحيد في مواجهة التطرف والإرهاب في منطقتنا العربية ، إذ تبدو المواجهة بين أجهزة الدولة والجماعات المتطرفة كما لو أنها تأثر متبادل متكرر بين الطرفين . إنه من الضروري إتاحة الفرصة أمام الجماعات المختلفة المعارضة للتعبير عن نفسها حتى يتحول التطرف والإرهاب من ممارسة غير شرعية إلى عمل سياسي مشروع وبناء . (١)

### **عدالة عقوبات الإسلام على الجرائم الخلقية**

وهذه العقوبات بجانب كونها محققة للمصالح العامة وحافضة للأمن العام فهي عقوبات عادلة غاية العدل .

إذ أن الزنا جريمة من أفحش الجرائم وأبشعها ، وعدوان على الخلق والشرف والكرامة ، ومقوض لنظام الأسر والبيوت . وعقوبة الزنا عقوبة قصد بها الزجر والردع والإرهاب أكثر مما قصد بها التنفيذ والفعل .

وقذف المحصنين والمحصنات من الجرائم التي تحل روابط الأسرة وتفرق بين الرجل وزوجه، وتهدم أركان البيت . فتقرير جلد مقترف هذه

(١) محمد الهواري " الإرهاب المفهوم والأسباب وسبل العلاج " ص ١ ، ٢ .

الجريمة ثمانين جلدة بعد عجزه عن الإتيان بأربعة شهداء يؤيدونه فيما يقذف به، غاية في الحكمة وفي رعاية المصلحة، كيلا تخذش كرامة إنسان أو يجرح في سمعته .

والسرقة ما هي إلا اعتداء على أموال الناس وعبت بها. والأموال أحب الأشياء إلى النفوس. فتقرير عقوبة القطع لمرتكب هذه الجريمة حتى يكف غيره عن اقتراف جريمة السرقة، فيأمن كل فرد على ماله، ويطمئن على أحب الأشياء لديه وأعزها على نفسه.

والمحاربون الساعون في الأرض بالفساد المضربون لنيران الفتن، المزعجون للأمن، المثيرون للاضطرابات، العاملون على قلب النظم القائمة، لا أقل من أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض .

والخمر تُفقد شاربها عقله ورشده، وإذا فقد الإنسان رشده وعقله ارتكب كل حماقة وفحش، فإذا جلد كان جلده مانعاً له من المعاودة من جانب، ورادعاً لغيره من اقتراف مثل جريمته من جانب آخر.

### وجوب إقامة الحدود:

إقامة الحدود فيها نفع للناس، لأنها تمنع الجرائم، وتردع، وتكف من تحدثه نفسه بانتهاك الحرمات، وتحقق الأمن لكل فرد، على نفسه، وعرضه وماله، وسمعته، وحرية، وكرامته، فعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ " حَدُّ يُعْمَلُ بِهِ فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا " [ صحيح ابن ماجة والنسائي ] .

إن الرحمة بالمجتمع أهم بكثير من الرحمة بالفرد . لذا يَحْرُمُ أن يشفع أحد أو يعمل على أن يُعْطَلَ حَداً من حدود الله، لأن في ذلك تفويتاً لمصلحة محققة، وإغراء بارتكاب الجنايات، ورضا بإفلات المجرم من تبعات جرمه .

وهذا بعد أن يصل الأمر إلى الحاكم، لأن الشفاعة حينئذ تصرف الحاكم عن وظيفته الأولى، وتفتح الباب لتعطيل الحدود .

أما قبل الوصول إلى الحاكم، فلا بأس من التَسْتُرِ على الجاني، والشفاعة عنده دون تضييع لحقوق العباد أو استمرار للجريمة .

أخرج أبو داود، والنسائي، والحاكم وصححه من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ قال : " تَعَاَفُوا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ فَمَا بَلَغَنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ " [ صحيح النسائي ] .

### سقوط الحدود بالشبهات

الحد عقوبة من العقوبات التي توقع ضرراً في جسد الجاني وسمعته، ولا يحل استباحة حرمة أحد، أو إيلامه إلا بالحق، ولا يثبت هذا الحق إلا بالدليل الذي لا يتطرق إليه الشك، فإذا تطرق إليه الشك كان ذلك مانعاً من اليقين الذي تتبني عليه الأحكام.

ومن أجل هذا كانت التُّهم والشكوك لا عبرة لها ولا اعتداد بها، لأنها مظنة الخطأ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " إِدْفَعُوا الْحُدُودَ، مَا وَجَدْتُمْ لَهَا مَدْفَعًا " [ ضعيف ابن ماجة ] .

وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : " ادْرَعُوا الْحُدُودَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ مَخْرَجٌ فَخَلُّوا سَبِيلَهُ فَإِنَّ الْإِمَامَ إِنْ يَخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ " [رواه الحاكم وصححه] (١)

## التوبة

والإسلام لا يغلق باب الخير والإصلاح أمام الإنسان المُخْطِئِ إنما يفتح له باباً يرجع فيه عما ارتكب من إثم ، وَيُكْفِّرُ فيه عما ارتكب من جرم ، ويصلح ما ارتكب من فساد فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ " كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ " [رواه الترمذي والحاكم وصححه] والتوبة من خصائص الأخلاق الإسلامية ، لا تعرفها المذاهب الأخلاقية الأخرى - حتى المثالية منها - فيعرفها د. عبد الله دراز بأنها واجب جديد - فوق مستوى الندم - يفرضه علينا الشرع عن أي تقصير في الواجب .. ووظيفة التوبة وظيفة إصلاحية في الأخلاق الإسلامية . ودورها العدول السريع عن الذنب ثم إصلاح الماضي والتخطيط لمستقبل أفضل .. مع تكرار جهودنا بلا يأس - من أجل الإصلاح. (٢)

## التعزير

والمقصود به في الشرع : التأديب على ذنب لا حَدَّ فيه ولا كَفَّارَةً . أي أنه عقوبة تأديبية يفرضها الحاكم على جنائية أو معصية لم يعين الشرع لها عقوبة، أو حدد لها عقوبة ولكن لم تتوفر فيها شروط التنفيذ مثل : سرقة مالا قطع فيه، وجناية لا قصاص فيها، وإتيان المرأة المرأة.

(١) سيد سابق " فقه السنة " ج ٢ ص ٣٥٧ - ٣٦٠ بتصرف .

(٢) د. مصطفى بن محمد حلمي في تقديمه لكتاب " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق .

ذلك أن المعاصي ثلاثة أقسام :

١ - نوع فيه حد، ولا كفارة فيه : وهي الحدود التي تقدم ذكرها.

٢ - ونوع فيه كفارة، ولا حد فيه .

مثل: الجماع في نهار رمضان، والجماع في الإحرام .

٣ - ونوع لا كفارة فيه ولا حد، كالمعاصي التي تقدم ذكرها، فيجب فيها التعزير.

مشروعيته: والأصل في مشروعيته ما رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، والبيهقي، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده: " إن النبي ﷺ حَبَسَ فِي النَّهْمَةِ " [ صححه الحاكم ] .

وإنما كان هذا الحبس حبساً احتياطياً حتى تظهر الحقيقة .

فعن هانئ بن نيار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: " لا يُجْلَدُ فَوْقَ عَشْرَةِ أَسْوَاطٍ ، إِلَّا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ ابْنُ أَبِي حَازِمٍ : لا يُجْلَدُ عَشْرَةَ أَسْوَاطٍ إِلَّا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى " [متفق عليه]

وقد ثبت أن عمر بن الخطاب كان يعزر ويؤدب، بحلق الرأس والنفي والضرب، كما كان يحرق حوانيت الخمارين، والقرية التي يباع فيها الخمر. وحرق قصر سعد بن أبي وقاص بالكوفة، لما احتجب فيه عن الرعية . وقد اتخذ درة يضرب بها من يستحق الضرب، واتخذ داراً للسجن، وضرب النائحة حتى بدا شعرها .

وقال الأئمة الثلاثة - غير الشافعي - : إنه واجب . (١)

(١) سيد سابق " فقه السنة " ج ٢ ص ٥٨٩ ، ٥٩٠ بتصرف .

التعزير من حق الحاكم: والتعزير يتولاه الحاكم، لأن له الولاية العامة على المسلمين .

وفي سبل السلام: وليس التعزير لغير الإمام ، إلا لثلاثة :

١ - الأول الأب، فإن له تعزير ولده الصغير للتعليم، والزجر عن سيئ الأخلاق، والظاهر أن الأم في مسألة زمن الصبا، في كفالته، لها ذلك، والأمر بالصلاة، والضرب عليها، وليس للأب تعزير البالغ، وإن كان سفيهاً .

٢ - والثاني السيد، يعزر رقيقه ( عَبْدَه ) في حق نفسه، وفي حق الله تعالى، على الأصح.

٣ - والثالث الزوج، له تعزير زوجته في أمر النشوز، كما صرح به القرآن .

﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [ النساء : ٣٤ ] .

وكذلك يجوز للمعلم تأديب الصبيان .

بشرط ألا يسرف واحد منهم، ويزيد على ما يحصل به المقصود .

فإذا أسرف واحد منهم في التأديب كان متعدياً، وضمن بسبب تعديه ما أنلفه. (١)

## شروط التوبة

كلمة التوبة كلمة عظيمة، لها مدلولات عميقة، لا كما يظنها الكثيرون، ألفاظ باللسان ثم الاستمرار على الذنب، وتأمل قوله تعالى:

(١) سيد سابق " فقه السنة " ج ٢ ص ٥٩٣ بتصرف.

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣] تجد أن التوبة هي أمر زائد على الاستغفار .

ولأن الأمر العظيم لا بد له من شروط ، فقد ذكر العلماء شروطاً للتوبة مأخوذة من الآيات والأحاديث، وهذا ذكر بعضها:

الأول: الإقلاع عن الذنب فوراً .

الثاني: الندم على ما فات .

الثالث: العزم على عدم العودة .

الرابع: إرجاع حقوق من ظلمهم، أو طلب البراءة منهم .

وذكر بعض أهل العلم تفصيلات أخرى لشروط التوبة النصوح، نسوقها مع بعض الأمثلة :

الأول: أن يكون ترك الذنب لله لا لشيء آخر، كعدم القدرة عليه أو على معاودته، أو خوف كلام الناس مثلاً .

فلا يسمى تائباً من ترك الذنوب لأنها تؤثر على جاهه وسمعته بين الناس، أو ربما طرد من وظيفته .

ولا يسمى تائباً من ترك الذنوب لحفظ صحته وقوته، كمن ترك الزنا أو الفاحشة خشية الأمراض الفتاكة المعدية، أو أنها تضعف جسمه وذاكرته .

ولا يسمى تائباً من ترك أخذ الرشوة لأنه خشي أن يكون معطيها من هيئة مكافحة الرشوة مثلاً.

ولا يسمى تائباً من ترك شرب الخمر وتعاطي المخدرات لإفلاسه .

وقد وصف القرآن اللصوصية التي تستحق قطع اليد ؟ بأنها لصوصية الظلم والإفساد ؟ وقال في هذا السارق المعاقب: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ \* فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة : ٣٨ ، ٣٩] .

### الحكمة من العقوبات الدنيوية على الجرائم الخلقية

الحد الذي شرعه الإسلام هو وقاية للجماعة العادلة المصلحة من ضراوة عضو فيها يقابل عدالتها بالظلم ويقابل إصلاحها بالفساد .

ذلك مثل نسوقه لنبين به أن الحدود على الجرائم الخلقية لم تشرع إكراهاً على الفضيلة وإلجاء للناس بطريق القسوة إلى اتخاذ المسلك الحسنة. فالطريقة المثلى لدى الإسلام هي خطاب القلب الإنساني واستثارة أشواقه الكامنة إلى السمو والكمال ورجعه إلى الله بارئه الأعلى.

بأسلوب من الإقناع والمحبة وتعليقه بالفضائل الجلييلة على أنها الثمرة الطبيعية لهذا كله.. ويجب التحكم في ظروف البيئة التي تكتنف الإنسان حتى يُعين على إنضاج المواهب والسجايا الحسنة .

ولا حرج من خلع الطفيليات التي لا فائدة منها فنحن في حقول الزراعات المختلفة نوفر النماء للمحاصيل الرئيسية باقتلاع كثير من الحشائش والأعشاب وليست المحافظة على مصلحة الإنسانية العامة بأقل من ذلك خطراً فلا وجه استتكار الحدود التي أقرها الإسلام وسبقت بها التوراة واعتبرت شريعة الأديان السماوية عامة .

والإسلام يُحمل البيئة قسطاً كبيراً من تبعة التوجيه إلى الخير أو الشر وإشاعة الرذائل أو الفضائل. واتجاهه إلى تولى مقاليد الحكم يعود فيما يعود إليه من أسباب ؟ إلى الرغبة في تشكيل المجتمع على نحو يعين على العفاف والاستقامة (١).

### جزاء الفاسق الذي أفلت من العقوبة

يقول ابن الجوزي : ما زلت أسمع عن جماعة من الأكابر وأرباب المناصب إنهم يشربون الخمر ويفسقون ويظلمون، ويفعلون أشياء توجب الحدود .

فبقيت أتفكر أقول متى يثبت على مثل هؤلاء ما يوجب حداً ؟ ولو ثبت فمن يقيمه ؟

وأستبعد هذا في العادة لأنهم في مقام احترام لأجل مناصبهم .  
فبقيت أتفكر في تعطيل الحد الواجب عليهم، حتى رأيناهم قد نكبوا وأخذوا مرات، ومرت عليهم العجائب.  
فقبل ظلمهم بأخذ أموالهم، وأخذت منهم الحدود مضاعفة بعد الحبس الطويل، والقيد الثقيل، والذل العظيم.  
وفيهم من قتل بعد ملاقة كل شدة، فعلمت أنه ما يهمل شيء، فالحذر الحذر فإن العقوبة بالمرصاد. (٢)

### الصبر على البلاء تكفير للذنوب

ومن رحمة الله تعالى أنه يكفر الذنوب بالبلاء يبتليه للعبد في نفسه أو ماله أو عزيز عليه إذا صبر واحتسب ، أو بحدٍّ أو تعزيز يحد به أو

(١) الشيخ محمد الغزالي " خلق المسلم " ص ٢١ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٠٨ .

يعزر فيقول النبي ﷺ : " مَا مِنْ عَبْدٍ ابْتُلِيَ بِبَلِيَّةٍ فِي الدُّنْيَا إِلَّا بِذَنْبِهِ وَاللَّهُ أَكْرَمُ وَأَعْظَمُ عَفْوَ مَنْ أَنْ يُسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " [الحاكم في الكنى ، والطبراني عن أبي موسى] .

فالبلاء في الدنيا دليل إرادة الله الخير بعبده حيث عجل له عقوبته في الدنيا ولم يؤخره للآخرة التي عقوبتها دائمة فهذه نعمة يجب على العبد شكرها وفيه أن الحدود كفارة لأهلها . (١)

وعن علي بن أبي طالب قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله عز وجل، وحدثنا به رسول الله ﷺ قال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] .

وسأفسرها لك يا علي: "مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَرَضٍ أَوْ عُقُوبَةٍ أَوْ بَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا، فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَاللَّهُ تَعَالَى أَحْلَمُ مِنْ أَنْ يُنْتَنَى عَلَيْهِ الْعُقُوبَةُ فِي الْآخِرَةِ، وَمَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا فَاللَّهُ تَعَالَى أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ بَعْدَ عَفْوِهِ" وكذا رواه الإمام أحمد . (٢)

وَعَنْ عَلِيٍّ كَذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ " مَنْ أَصَابَ حَدًّا فَعُجِّلَ عُقُوبَتُهُ فِي الدُّنْيَا فَاللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُنْتَنَى عَلَى عَبْدِهِ الْعُقُوبَةُ فِي الْآخِرَةِ وَمَنْ أَصَابَ حَدًّا فَسَنَّهَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَفَا عَنْهُ فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ إِلَى شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ " [صحيح الترمذي] .

فمن ارتكب ذنباً فعوقب عليه في الدنيا بإقامة الحد عليه أو مصيبة تصيبه، فهذا من كسب يده، أي بسببه هو، ولن يعاقب عليه مرة أخرى

(١) الإمام المناوي " فيض القدير " ج ٥ ص ٦٢٥ .

(٢) الإمام المناوي " فيض القدير " ج ٥ ص ٦٢٥ .

\_\_\_\_\_ ﴿ أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع ﴾ \_\_\_\_\_  
في الآخرة، لأنه نال جزاءه في الدنيا . وأما ما أصاب الأنبياء  
والصالحين فهو للابتلاء وزيادة الأجر، ولتأسي المؤمنين بهم.

\*\*\*

## الفصل السابع

علاقة الأخلاق بنهضة الشعوب وانهارها



## علاقة الأخلاق بنهضة الشعوب وانهيارها

يقول المثل الصيني :

ازرع فكرة تحصد فعلاً.

ازرع فعلاً تحصد سلوكاً .

ازرع سلوكاً تحصد خلقاً .

ازرع خلقاً تحصد أمة ومصيراً .

### مقومات الحضارة

يشترط علماء الحضارة عاملين رئيسيين لنشأة أي حضارة :

الأول : المقومات الطبيعية التي تتمثل في :

١- أحواض الأنهار الكبرى كالنيل في مصر ، ودجلة والفرات في العراق ، والسند في الهند ...

٢- المناخ وهو من أكثر العوامل الطبيعية تأثيراً في حياة الإنسان وفي تقدمه ، فلا بد من توفر مناخاً معتدلاً ، وشمساً مشرقة ، وسماءً صافيةً ، وهواءً عليلًا ، ورياحاً لا بالعاصفة ولا بالساكنة ، واختلافاً في حرارة فصول السنة .

٣- الموقع الذي يمكنها من الاتصال بالعالم الخارجي والتفاعل معه والتأثر به والتأثير فيه .

٤- الحدود الآمنة من العدوان الخارجي .

٥- الثروات المعدنية من حديد ونحاس وذهب ... ، والصخور كالجرانيت والرخام ... والأحجار الكريمة كالماس والعقيق ...

الثاني : المقومات البشرية وفي السمات التي تميز الشعوب المتحضرة والتي تمكنهم من استخدام المقومات الطبيعية أحسن استخدام ومن أهم هذه السمات : الفطنة والذكاء ، والجد والاجتهاد ، والتضحية والفداء ، الإخلاص والإتقان ، والتعاون والإيثار ...

والحقيقة أن مقومات الحضارة الطبيعية والبشرية فحسب لا يصنعان حضارة حقيقية قد يصنعان تقدماً علمياً وتكنولوجياً ، يغزوان البلاد وبذلان العباد ولا يحققان إلا البؤس والشقاء ، ومصيرهما الهلاك والفناء ؛ قد يُحَقِّق التقدُّم العلمي والتكنولوجي مكاسب مادية ومغانم اقتصادية لكنه أبداً لن يحقق سعادة النفس ولا طمأنينة القلب ولا غذاء الروح ؛ فإن لم تُقَم المَدَنِيَّة على دين صحيح وخلق قويم وسلوك مستقيم فإنها لن تصنع إنساناً سويّاً ، ولن تقيم حضارة خالدة تنفع الإنسانية . وهذا هو حال جميع مَدَنِيَّات الممالك والإمبراطوريات التي لم تُبْنِ على تعاليم السماء : الحق والعدل والحب وحسن الخلق ، كلها زالت غير مأسوف عليها بسبب ضلالها وظلمها .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

[ الروم : ٩ ]

وهي دعوة إلى النظر في أحوال الأمم القديمة والحديثة التي شيدت مدنيّتها على المقومات الطبيعيّة والبشريّة فحسب دون تعاليم السماء ، نعم ملكوا القوة الباطشة ﴿ كانوا أشدّ منهم قوّة ﴾ وحرثوا الأرض وشقّوا عن باطنها ، وكشفوا عن ذخائرها ﴿ وأناروا الأرض ﴾ وعمّروا الأرض ؛ فأقاموا المدن الكبيرة وبنوا فيها القصور الفخمة وزيّنها بالحدائق الجميلة ونحتوا فيها التماثيل الضخمة وأحاطوها بالأسوار الجميلة ذات الأبراج العالية ﴿ وعمّروها أكثر ممّا عمّروها ﴾ لكنهم وقفوا عند ظاهر الحياة الدنيا لا يتجاوزونه إلى ما وراءه : ﴿ وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ .

فلم تنفتح بصائرهم لهذه السيئات؛ ولم يؤمنوا فتتصل ضمائرهم بالنور الذي يكشف الطريق . فمضت فيهم سنة الله في المكذّبين؛ ولم تنفعهم قوتهم؛ ولم يُغن عنهم علمهم ولا حضارتهم؛ ولقوا جزاءهم العادل الذي يستحقونه : ﴿ فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (١)

### دعوة القرآن للنظر في أسباب هلاك الأمم السابقة

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾

[ الأنعام : ٦ ]

ألم ير أصحاب المدينيات المادية التي تنعمت بنعم الله وكفرت بالمنعم سبحانه إلى مصارع الأجيال الغابرة . وقد مكّنهم الله في الأرض، وأعطاهم من أسباب القوّة والسلطان ما لم يُعط مثله لهؤلاء

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٥ ص ٤٨١ .

وغيرهم ؛ وأرسل المطر عليهم متتابعاً ينشئ في حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق.. ثم ماذا؟ ثم عصوا ربهم ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم جيلاً آخر ، ورث الأرض من بعدهم ؛ ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض! فقد ورثها قوم آخرون! فما أهون المكذِّبين المُعْرِضِينَ أصحاب القوَّة والتمكين من البشر! ما أهونهم على الله ؛ وما أهونهم على هذه الأرض أيضاً! لقد أَهْلَكُوا وَغَبَرُوا فما أَحَسَّت هذه الأرض بالخلاء والخواء؛ إنما عَمَّرَهَا جيل آخر؛ ومضت الأرض في دورتها كأن لم يكن هنا سكان؛ ومضت الحياة في حركتها كأن لم يكن هنا أحياء!

### حقيقة ينساها البشر حين يمكن الله لهم في الأرض

وهناك حقيقة ينساها البشر حين يمكن الله لهم في الأرض . ينسون أن هذا التمكين إنما تَمَّ بمشيئة الله ، ليلوهم فيه : أيقومون عليه بعهد الله وشرطه ، من العبوديَّة له وحده ، والتلقي منه وحده - بما أنه هو صاحب المُلك وهم مُسْتَخْلَفُونَ فيه - أم يجعلون من أنفسهم طواغيت ، تدَّعي حقوق الألوهيَّة وخصائصها؛ ويتصرَّفون فيما اسْتُخْلِفُوا فيه تصرَّف المالك لا المُسْتَخْلَف .

إنها حقيقة ينساها البشر - إلا من عصم الله - وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف ؛ ويمضون على غير سُنَّة الله ؛ ولا يتبيَّن لهم في أوَّل الطريق عواقب هذا الانحراف ، ويقع الفساد رويداً رويداً وهم ينزلقون ولا يشعرون ، حتى يستوفي الكتاب أجله؛ ويحق وعد الله ، ثمَّ تختلف أشكال النهاية: مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال - بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام - ومرة

يأخذهم بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث كذلك لأقوام - ومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض؛ فيعذب بعضهم بعضاً ، ويدمر بعضهم بعضاً ، ويؤذي بعضهم بعضاً ، ولا يعود بعضهم يأمن بعضاً؛ فتضعف شوكتهم في النهاية؛ ويسلّط الله عليهم عبادة له - طائعين أو عصاة - يكسرون شوكتهم ، ويقتلعونهم مما مكنوا فيه؛ ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبنتليهم بما مكنهم.

وهكذا تمضي دورة السُّنة .. السعيد من وعى أنها السُّنة ، ومن وعى أنه الابتلاء؛ فعمل بعهد الله فيما اسْتُخْلِفَ فيه . والشقي من غفل عن هذه الحقيقة ، وظنَّ أنه أوتيها بعلمه ، أو أوتيها بحيلته ، أو أوتيها جزافاً بلا تدبير!

وإنه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي ، أو المستهتر الفاسد، أو المُلحد الكافر ، مُمَكَّنًا له في الأرض ، غير مأخوذ من الله ، ولكنَّ الناس إنَّما يستعجلون ، إنهم يرون أوَّل الطريق أو وسطه؛ ولا يرون نهاية الطريق ، ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجيء ! لا ترى إلا في مَصَارِع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث القرآن الكريم يوجّه إلى هذه المَصَارِع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون - في حياتهم الفرديّة القصيرة - نهاية الطريق؛ فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة وبحسبونه نهاية الطريق !

### الفرق بين التفسير المادي للتاريخ والتفسير الإسلامي

إن هذا النص في القرآن : ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ وما يماثله ، وهو يتكرر كثيراً في القرآن الكريم إنما يقرّر حقيقة ، ويقرّر سنة ، ويقرّر طرفاً من التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ .

إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفاً باتاً من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التاريخ ، ذلك أن وجهته ابتداء هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة ، واستبعاد القاعدة الاعتقاديّة التي يقوم عليها .

والتفسير الإسلامي - بشموله وجدّيته وصدقه وواقعيته - لا يغفل أثر العناصر الماديّة - التي يجعلها التفسير الماديّ هي كل شيء - ولكنه يعطيها مكانها الذي تستحقه في رقعة الحياة العريضة؛ ويبرز العناصر الفعّالة الأخرى التي لا ينكرها إلا أصحاب العناد الصفيق لواقعيّات الوجود ، يبرز قَدَر الله من وراء كل شيء؛ ويبرز التغير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات؛ ويبرز السلوك الواقعيّ والعنصر الأخلاقيّ ، ولا يغفل عاملاً واحداً من العوامل التي تجري بها سنّة الله في الحياة . (١)

### فساد الأخلاق وانهايار الأمم والشعوب

يبين القرآن الكريم أن لكلّ أمةً أجل ، كما يؤكد لنا التاريخ أن كل ما له بداية له نهاية ، وما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع ، وكما أن الإنسان يمر بأطوار : ميلاد ، وطفولة ، وصبا ، وشباب ، ورجولة ، وشيخوخة ، وموت فذلك الحضارات الإنسانية ، ونهضات الشعوب تمر بعدة أطوار : ميلاد ، ونهضة ، وكمال ، واضمحلال ، وفناء .  
﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

[ الأعراف : ٣٤ ]

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٢ ص ٤٧٠ - ٤٧٣ بتصرف .

﴿ علاقة الأخلاق بنهضة الشعوب وانقيادها ﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم : ٥٤].

والعامل المشترك في اضمحلال حضارات ونهضات الأمم والشعوب هو فساد الأخلاق ، وانحلال القيم ، وتفشي الظلم والطغيان ، وبطّر العيش ، وكفر النعم ، وكثرة الإسراف والترف ، وانتشار الزنا والخنى والفواحش والمنكرات .

وللّه درّ أحمد شوقي حين قال :

إنّما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ \* فإن هُموا ذَهَبَتْ أخلاقُهُمْ ذَهَبُوا

ونُجِمَ أهمُ مُهْلِكَاتِ الأممِ في الآتي :

#### ١ - الظلم :

إن الظلم من أعظم الأسباب التي يهلك الله عز وجل بها القرى ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقَرْيَ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾

[القصص : ٥٩]

وقال جل شأنه : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [الأنبياء : ١١] .

وقال عز وجل : ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبُئِرَ مُعِطَّةٌ وَقَصِرَ مَشِيدٌ ﴾ [الحج: ٤٥] .

فالظلم وعدم الحُكم بالسوية سبب هلاك الأمم كما يقرر القرآن العظيم ،  
وبين رسوله كريم يقول النبي ﷺ : " إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا  
سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ،  
وَإِيْمُ اللَّهِ ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا " [متفق عليه] .

## ٢- بَطْر النِّعَم :

ومن الأسباب الحقيقية التي تؤدي إلى هلاك الأمم بطر النعم يقول  
تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص: ٥٨] .

لقد أهلك الله كثيراً من الأمم التي لم تقابل نعم الله عليها بالشكر وتحسن  
استخدامها في الخير بل تمتعوا بالنعم وكفروا بالمُنعم واستطالوا بهذه  
النعم على خلق الله ، واستعملوا نعم الله في الشر لا في الخير ، وفي  
الفسوق لا في الطاعة ، فأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، ودمرهم  
وقراهم تدميراً .

وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا  
رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ  
بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢] .

ومن أنواع البَطْر التباهي بالقوة والجبروت واستخدام ذلك للتعدي على  
الإسلام وعلى الداعين إلى الله وللصد عن سبيل الله، وهو ما تفعله  
أمريكا وتشجع وتؤيد حلفاءها على فعله واقترافه، قال تعالى ﴿ وَلَا تَكُونُوا  
كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ  
وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [ الأنفال : ٤٧ ] .

### ٣- الإسراف والتَّرف :

ومن أسباب هلاك الأمم الإسراف والتَّرف .

والتَّرف: هو الإغراق في النعم والاسترسال معها حتى تصبح كل هموم الإنسان - لزيينة الثياب والتزين والتَّجَمُّل - والمترفون هم أعداء الرسل وهم سبب هلاك الأمم .

ومن نتائج التَّرف: الغفلة، وعبادة الشهوة، والصراع على المكاسب، والعقوبات التدريجية وضياع الدنيا والآخرة.

يقول تعالى : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [ الإسراء : ١٦ ] .

والمعنى : وإذا قرب وقت إرادتنا إهلاك أهل قرية ، أمرنا مترفيها ، وأهل الغنى والسلطان فيها بالإيمان والعمل الصالح ، والمداومة على طاعتنا وشكرنا ، فلم يستجيبوا لأمرنا ، بل فسقوا فيها ، وعاثوا في الأرض فساداً.

وخص الله تعالى المترفين بالذكر مع أن الأمر بالطاعة للجميع ، لأن هؤلاء المترفين هم الأئمة والقادة ، فإذا ما استجابوا للأمر استجاب غيرهم تبعاً لهم في معظم الأحيان ، ولأنهم في أعم الأحوال هم الأسرع إلى ارتكاب ما نهى الله عنه ، وإلى الانغماس في المتع والشهوات .

وهذا التفسير للآية الكريمة ، سار عليه جمهور المفسرين .

### ٤- ظهور الفواحش :

من أسباب هلاك الأمم ودمارها: ظهور الفواحش فيها.

فإن الله تعالى حرّم الفواحش كلها ظاهرها وباطنها ، سرها وعلانيتها ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

الفواحش : كبائر المعاصي والأعمال المفرطة في القبح عامة أما المفرد فاحشة فيقصد به الزنا بصفة خاصة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] .

ولقد توعّد الله تعالى الذين يشيعون الفاحشة بالعذاب في الدارين في الدنيا بالهلاك والدمار وفي الآخرة بالجحيم والنار ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩] .

ويقول ﷺ : " لا إله إلا الله ، وبِئْسَ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمٍ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلَ هَذِهِ " ، وحلّق بأصبعيه الإبهام والتي تليها ، فقلتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ : " نَعَمْ ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ " [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ] .

والخبث كما ذكر شَرَّاح الحديث هو الزنا، وأولاد الزنا، والفواحش، والفجور .

وفي أول خطبة لأبي بكر الصديق بعد توليه الخلافة حذّر فيها الناس من إشاعة الفاحشة حتى لا يصيبهم البلاء والهلاك يقول الصديق " ولا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطَّ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ " [صححه ابن كثير] .

وذكر ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك قال : " دخلت على عائشة رضي الله عنها أنا ورجل آخر ، فقال لها الرجل : يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة ، فقالت : إذا استباحوا الزنا وشربوا الخمر وضربوا بالمآذن ،

غار الله جل وعلا في سمائه، فقال للأرض: تزلزلي بهم، فإن تابوا ونزعوا وإلا هدمها عليهم، قال: يا أم المؤمنين أَعذابا لهم؟ قالت: موعظة ورحمة للمؤمنين، ونكالا وعذابا وسخطا على الكافرين" قال أنس: "ما سمعت حديثاً بعد رسول الله ﷺ أنا أشد فرحاً به مني بهذا الحديث"، ويقول ابن مسعود: "إذا ظهر الزنا والزنا والربا في قرية أذن الله بهلاكها."

### ما يميز الحضارة الإسلامية عن غيرها

تتميز الحضارة الإسلامية عن غيرها أنها حضارة توحيد خالص وخلقٍ راسخ وعمل صالح ؛ فقد قامت الحضارة الإسلامية على تعاليم الإسلام الرامية إلى توحيد الله الواحد الأحد ووصفه بكل صفات الكمال وتنزيهه عن كل صفات النقص ذلك التوحيد الذي سوى بين كل البشر أمامه تعالى فلا فضل لعربي على أعجمي ، ولا أبيض على أسود ، ولا غني على فقير ، ولا رجل على امرأة ، ولا حاكم على محكوم ، ولا صحيح على مريض إلا بالتقوى والعمل الصالح والخلق الكريم يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] .

ويقول النبي ﷺ في خطبة الوداع : " قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، إِلَّا بِالتَّقْوَى أَلَا هَلْ بَلَغْتُ ؟ قَالُوا : بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ " [ صحيح رواه أحمد ] .

" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى أَعْمَالِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ " [ صحيح مسلم ] .

وبجانب عقيدة التوحيد التي تميز الحضارة الإسلامية تأتي الأخلاق التي تمثل الغاية من بعثة النبي ﷺ كما بينا في الفصول السابقة ، والأخلاق في الحضارة الإسلامية لا تقتصر على مجال واحد من مناحي الحياة بل تشمل جميع مناحي الحياة : السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والحربية ، والعلمية ، الأدبية والثقافية ....

فقيم العدل والرحمة والتعاون والبر والمحبة أخلاق تحرص عليها الحضارة الإسلامية وتعمل على إشاعتها في المجتمعات الإسلامية في شتى مناحي الحياة ، وقيم : الظلم ، والقسوة ، والأثرة ، والعدوان ، والكره ... أخلاق محرمة بل مُجَرَّمَة في الحضارة الإسلامية تعمل على القضاء عليها في شتى مناحي الحياة .

وفيما يل سنحاول بيان ذلك .

### خصائص الحضارة الإسلامية

أبرز ما يلفت نظر الدارس لحضارتنا أنها تميزت بالخصائص التالية:

#### ١ - الوجدانية المطلقة في العقيدة :

لقد قامت الحضارة الإسلامية على أساس الوجدانية المطلقة في العقيدة، فقد نادى بالإله الواحد الذي لا شريد له في حكمه وملكه، هو وحده الذي يُعِيد، وهو وحده الذي يُقصد وهو الذي يعز ويذل، ويعطي ويمنح،

وما من شيء في السموات والأرض إلا وهو تحت قدرته وفي متناول قبضته.

هذا السمو في فهم الوجدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان وتحرير الجماهير من طغيان الملوك والأشراف والأقوياء ورجال الدين، وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين.

كما كان لهذه العقيدة أثر كبير في الحضارة الإسلامية تكاد تتميز به عن كل الحضارات السابقة واللاحقة، وهي خلوها من كل مظاهر الوثنية وآدابها وفلسفتها في العقيدة والحكم والفن والشعر والأدب، إن الإسلام الذي أعلن الحرب على الوثنية ومظاهرها لم يسمح لحضارته أن تقوم فيها مظاهر الوثنية وبقاياها المستمرة من أقدم عصور التاريخ، كتماثيل العظماء والصالحين والأنبياء والفاتحين.

## ٢ - إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة :

وثاني خصائص حضارتنا أنها إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة، فالقرآن الذي أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه ومناقبه ومواطنه، في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾

[الحجرات: ١٣]

إن القرآن حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة جعل حضارته عِقدًا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم

والشعوب، فأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبويه والكندي والغزالي والفارابي وابن رشد وأمثالهم ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم، ليسوا إلا عباقر قَدَّمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاج الفكر الإنساني السليم.

### ٣ - مراعاة المبادئ الأخلاقية تشريعاً وتطبيقاً :

وثالث خصائص حضارتنا أنها جعلت للمبادئ الأخلاقية المحل الأول في كل نظمها ومختلف ميادين نشاطها ، وهي لم تتخل عن هذه المبادئ قط ، ولم تجعل وسيلة لمنفعة دولة أو جماعة أو أفراد، ففي الحكم وفي العلم وفي التشريع وفي الحرب وفي السلم وفي الاقتصاد وفي الأسرة، روعيت المبادئ الأخلاقية تشريعاً وتطبيقاً، وبلغت في ذلك شأواً سامياً بعيداً لم تبلغه حضارة في القديم والحديث، ولقد تركت الحضارة الإسلامية في ذلك آثاراً تستحق الإعجاب وتجعلها وحدها من بين الحضارات التي كفلت سعادة الإنسانية سعادة خالصة لا يشوبها شقاء.

### ٤ - الإيمان بالعلم في أصدق أصوله :

الحضارة الإسلامية حضارة تؤمن بالعلم في أصدق أصوله ، وترتكز على العقيدة في أصفى مبادئها ، فهي تخاطب العقل والقلب معاً ، وتثير العاطفة والفكر في وقت واحد .

وسر العجب في هذه الخاصة من خصائص حضارتنا أنها استطاعت أن تنشئ نظاماً للدولة قائماً على مبادئ الحق والعدالة، مرتكزاً إلى الدين والعقيدة دون أن يقيم الدين عائقاً ما دون رقي الدولة واطراد

﴿ علاقة الأخلاق بنهضة الشعوب وانهيارها ﴾

الحضارة، بل كان الدين من أكبر عوامل الرقي فيها، فمن بين جدران المساجد في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة انطلقت أشعة العلم إلى أنحاء الدنيا قاطبة .

إن الحضارة الإسلامية لا يُفصل فيها الدين عن الدولة مع نجاتها من كل مآسي المزج بينهما كما عرفته أوروبا في القرون الوسطى.

لقد كان رئيس الدولة خليفة وأميرًا للمؤمنين، لكن الحكم عنده للحق والتشريع للمختصين فيه، ولكل فئة من العلماء اختصاصهم والجميع يتساوون أمام القانون، والتفاضل بالتقوى والخدمة العامة للناس " وإيُّ الله، لو أنَّ فاطمة بنتَ مُحَمَّدٍ، سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا " [ متفق عليه ]

هذا هو الدين الذي قامت عليه حضارتنا، ليس فيه امتياز لرئيس ولا لرجل دين ولا لشريف ولا لغني .

#### ٥ - التسامح الديني :

وآخر ما نذكره من خصائص حضارتنا هذا التسامح الديني العجيب الذي لم تعرفه حضارة مثلها قامت على الدين. إن الذي لا يؤمن بدين ولا بإله لا يبدو عجيبيًا إذا نظر إلى الأديان كلها على حد سواء، وإذا عامل أتباعها بالقسطاس المستقيم، ولكن صاحب الدين الذي يؤمن بأن دينه حق وأن عقيدته أقوم العقائد وأصحها، ثم يتاح له أن يحمل السيف، ويفتح المدن، ويستولي على الحكم، ويجلس على منصة القضاء، ثم لا يحمله إيمانه بدينه، واعتزازه بعقيدته، على أن يجور في الحكم، أو ينحرف عن سنن العدالة، أو يحمل الناس على اتباع دينه. إن رجلاً مثل هذا لعجيب أن يكون في التاريخ، فكيف إذا وجد في

التاريخ حضارة قامت على الدين وشادت قواعدها على مبادئه ثم هي من أشد ما عرف التاريخ تسامحاً وعدالة ورحمة وإنسانية ! وحسبنا أن نعرف أن حضارتنا تتفرد في التاريخ بأن الذي أقامها دين واحد ولكنها كانت للأديان جميعاً . (١)

### الشواهد الواقعية على الحضارة الإسلامية

لقد تركت حضارتنا الإسلامية آثاراً خالدة في مختلف النواحي العلمية والخلقية وغيرها، وحققت دوراً عظيماً في تأريخ تقدم الإنسانية، وخلفت آثاراً بعيدة المدى قوية التأثير فيما وصلت إليه المدنيات الحديثة، وليس هذا من المبالغة في شيء، ولا ضرباً من التفاخر الكاذب والادعاء المذموم، بل سجلّ التأريخ بأحرف من ذهب ومداد من نور، وإليك بعض الشواهد الواقعية والنماذج الحية من تأريخ حضارتنا المشرق الوضاء، الذي ينضح عدلاً ورحمة وإنصافاً حتى مع المخالف .

ففي نزعة حضارتنا الإنسانية يعلن الإسلام المبدأ الإنساني الخالد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعْرِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ [الحجرات: ١٣] لينقل الإنسانية من أجواء الحقد والكراهية، والتفرقة والعصبية، والتمييز العنصري إلى المساواة والتعاون الذي لا أثر فيه لاستعلاء عرقي أو عنصري، ويتجلى ذلك في مبادئ حضارتنا وتشريعاتها وواقعها.

وقد زخرت كتب السير والتأريخ بوقائع كثيرة، هذا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، يرى مرة في السوق شيخاً كبيراً يسأل الصدقة، وكان

(١) د. مصطفى السباعي " خصائص حضارتنا " بتصرف نقلاً عن الشبكة الإسلامية .

يهودياً من سكان المدينة، فيسأله (عن حاله، وإذا بعمر المسلم الإنساني الملمهم يقول له: " ما أنصفناك إذ أخذنا منك الجزية في شبيبته، ثم ضيعناك شيخاً " وأخذ بيده إلى بيته، فقدم له من طعامه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال أن افرض له ولأمثاله ما يغنيه ويغني عياله.

هذا من شواهد الروعة الحضارية في تأريخ أمتنا المجيد.

وفي مجال النظرة إلى المَخَالَفِ أعلنت حضارتنا الإسلامية مبدأ الإنصاف، وحسن التعامل، والدعوة إلى الله بالحسن، مؤكدة الإيمان بجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، ﴿ لَا تَفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: ١٣٦] مع الحرص على مبدأ الحوار والإقناع ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿ وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] مع التأكيد على الأخذ بقاعدة سد الذرائع في عدم سبِّ آلهتهم، حتى يكون لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، والحرص على المصاحبة بالمعروف، وحسن الجوار، وكريم المعاملة، فقد كان لرسول الإسلام ﷺ جيران من أهل الكتاب، فكان يزورهم ويتعاهدهم ببره، ويقبل هداياهم، وما كتأب أمير المؤمنين عمر لأهل إيليا، وإعطائهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأماكن عباداتهم، وإجابتهم لاشتراطهم أن لا يساكنهم فيها يهودي إلا أنموذج رائع يحمل مغزى عميقاً في آثار حضارتنا الإسلامية، مما دعا كثيراً من منصفهم إلى الاعتراف بأن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم، والفضل ما شهدت به الأعداء.

وثمة جانب مشرق في حضارتنا الإسلامية ألا وهو جانب أخلاقنا الحربية، فقد أشرقت شمس حضارتنا والعالم كله تحكمه شريعة الغاب،

حتى تردى إلى عالم الوحوش الكاسرة، فوضعت حضارتنا الضوابط الحربية محرمة الحرب للنهب والسلب، وإذلال كرامة الشعوب، وسحق المجتمعات، وجعلت لها غايات نبيلة، منها الدفاع عن عقيدة الأمة وأمن المجتمع وردّ عدوان المعتدين ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] فالحرب لا تتسينا مبادتنا، ولذلك جاءت الوصايا الكريمة حينما يشتد الوطيس: " لا تمثلوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا شيخاً ولا وليداً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له " ، جاء هذا في وصية أبي بكر الصديق حينما أنفذ جيش أسامة رضي الله عنهما.

وأبلغ من هذا رسول الإسلام ، يخرج من معركة أحد جريحاً قد كُسرت رباعيته، وشُج وجهه، فيقول له بعض الصحابة رضي الله عنهم: لو دعوت عليهم يا رسول الله، فقال: " لَمَّا كُسِرَتْ رُبَاعِيَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وشُجَّ في جبهته فجعلت الدماء تسيلُ على وجهه قيل : يا رسولَ الله ، ادعُ الله عليهم فقال ﷺ: " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْنِي طَعَانًا وَلَا لَعْنًا ، ولكن بعثني داعيةً ورحمةً ، اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " [ رواه البيهقي في شعب الإيمان ] وهكذا قال يوم الفتح: " يا معشرَ قريشٍ ما تَرَوْنَ أَنِّي فاعِلٌ بكم ؟ قالوا : خيرًا ، أَخُ كَرِيمٌ ، وابنُ أَخٍ كَرِيمٍ ، فقال : اذهبوا فأنتم الطُّلُقَاءُ " ورأى في بعض غزواته امرأةً مقتولةً فغضب وقال: " ألم أنهكم عن قتل النساء؟! ما كانت هذه لتقاتل " .

ويمضي تاريخنا المجيد مسجلاً هذه الروائع، ففي حروب التتار وقع بأيديهم كثيرٌ من أسرى المسلمين وأهل الذمة، فتدخل ابن تيمية في فك الأسرى، فأجابه الوالي إلى فك أسرى المسلمين فقط، فأبى الشيخ ذلك، وقال: "لا بد من افتكاك الجميع، من أهل ديننا وأهل ذمتنا، ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة"، وهكذا تعامل حضارتنا الأسرى من المسلمين وغيرهم .

ولما فتح صلاح الدين رحمه الله بيت المقدس كان فيها ما يزيد على مائة ألف من غير المسلمين فبذل لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، وسمح لهم بالخروج منها لقاء شيء يسير يدفعه المقتدرون منهم، ومن لا يقدر من الفقراء ففدأوه عليه رحمه الله . (١)

### آثار الحضارة الإسلامية في تاريخ الإنسانية

إنَّ الحضارات إنَّما تتخذ بمقدار ما تُقدمه في تاريخ الإنسانية من آثار خالدة في مختلف النواحي الفكرية، والخلقية، والمادية، والحضارة الإسلامية لعبت دوراً خطيراً في تاريخ التقدم الإنساني، وتركت في ميادين العقيدة والعلم، والحكم والفلسفة، والفن والأدب وغيرها - آثاراً بعيدة المدى، قوة التأثير فيما وصلت إليه الحضارة الحديثة، فما الآثار؟ وما أهميتها؟

نستطيع أن نجمل الآثار الخالدة لحضارتنا في ميادين أربعة رئيسة:

(١) الشيخ عبد الرحمن السديس نقلاً عن الشبكة الإسلامية .

## أولاً: في ميدان الفلسفة والعلوم.

أفاقت أوروبا في عصورها المظلمة على صوت علمائنا وفلاسفتنا يدرّسون هذه العلوم في مساجد إشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها، وكان رواد الغربيين الأول بمدارسنا شديدي الإعجاب والشغف بكلّ ما يستمعون إليه من هذه العلوم، في جوّ من الحرّية لا يعرفون له مثيلاً في بلادهم؛ ففي الوقت الذي كان فيه علماءنا يتحدثون في حلقاتهم العلميّة ومؤلفاتهم عن دوران الأرض وكروبيّتها، وحركات الأفلاك والأجرام السماويّة - كانت عقول الأوروبيين تمتلئ بالخرافات والأوهام عن هذه الحقائق كلّها؛ ومن ثمّ ابتدأت عند الغربيين حركة الترجمة من العربيّة إلى اللاتينية، وغدت كُتُب علمائنا تُدرّس في الجامعات العربيّة؛ فقد تُرجم كتاب (القانون) في الطبّ لابن سينا في القرن الثاني عشر، كما تُرجم كتاب (الحاوي) للرّازي - وهو أوسع من القانون وأضخم - في نهاية القرن الثالث عشر، وظل هذان الكتابان عمدة لتدريس الطب في الجامعات الأوروبيّة حتّى القرن السادس عشر، أمّا كتب الفلسفة فقد استمرت أكثر من ذلك، ولم يعرف الغرب فلسفة اليونان إلّا عن طريق مؤلفاتنا وترجماتنا، ومن هنا يعترف كثير من الغربيّين المُنصفين بأنّنا كنا في القرون الوسطى أساتذة أوروبا مدّة لا تقل عن ستمائة سنة .

يقول العلامة المستشرق "سيديو": "كان العرب وحدهم حاملين لواء الحضارة الوسطى، فدحروا بربرية أوروبا التي زلزلتها غارات قبائل الشمال، وسار العرب إلى منابع فلسفة اليونان الخالدة، فلم يبقوا عند حدّ ما اكتسبوه من كُنُوز المعرفة، بل وسعوه وفتحوا أبواباً جديدة لدرس الطبيعة"، ويقول أيضاً: "والعرب حين زاولوا علم الهيئة عُثُوا عناية

﴿ علاقة الأخلاق بنهضة الشعوب وانهيارها ﴾ \_\_\_\_\_  
خاصة بالعلوم الرياضية كلها؛ فكان لهم فيها القدح المعلى، فكانوا  
أساتذة لنا في هذا المضمار بالحقيقة " .

ويقول "هومبلد" في كتابه عن الكون: "والعرب هم الذين أوجدوا  
الصيْدَلَة الكيماوية، ومن العرب أتت الوصايا المُحكَّمة الأولى التي  
انتحلتها مدرسة (ساليرم) فانتشرت في جنوب أوروبا بعد زمن، وأدَّت  
الصيدلة ومادة الطب اللتان يقوم عليهما فنُّ الشفاء إلى دراسة علم  
النبات والكيمياء في وقت واحدٍ، ومن طريقين مُختلِفين، وبالعرب فُتِحَ  
عهدٌ جديدٌ لذلك العلم " .

ويقول "سيديو" عن الرَّازي وابن سينا: "إنَّهما سيطرا بكتُبهما على  
مدارس الغرب زمنًا طويلاً، وعُرف ابن سينا في أوروبا طبيباً؛ فكان له  
على مدارسها سلطان مطلق مدَّة ستة قرون تقريباً، فترجم كتابه  
(القانون) المشتمل على خمسة أجزاء، وطُبِع عدَّة مرات؛ لِعَدَّة أساساً  
للدراسات في جامعات فرنسا وإيطاليا " .

### ثانياً: في ميدان اللغة والأدب

فقد تأثر الغربيون - خاصة شعراء الإسبان - بالأدب العربي تأثراً  
كبيراً؛ فقد دخل أدب الفُروسِيَّة والحماسة، والمجاز والتَّخِيَّلات الراقية  
البديعة إلى الآداب الغربيَّة، عن طريق الأدب العربي في الأندلس على  
الخصوص؛ يقول الكاتب الإسباني المشهور "أبانيز": "إنَّ أوروبا لم تكن  
تعرف الفُروسِيَّة، ولا تدين بآدابها المرعيَّة، ولا نخوتها الحماسيَّة قبل  
وفود العرب إلى الأندلس، وانتشار فُرسانهم وأبطالهم في أقطار  
الجنوب".

ومن عباقرة الأدب في أوروبا في القرن الرابع عشر وما بعده - مَنْ لا يُشَاكُ أبدًا في تأثير الآداب العربيّة على قصصهم وآدابهم؛ ففي سنة ١٣٤٩هـ كتب "بوكاشيو" حكاياته المُسمّاة بـ "الصباحات العشرة"، وهي تَحْذُو حَذُو ألف ليلة وليلة، ومنها اقتبس شكسبير موضوع مسرحيته "العبرة بالخواتيم"، كما اقتبس لسنغ الألماني مسرحيته "ناتان الحكيم".

وكان شوسر إمام الشعر الحديث في اللغة الإنجليزيّة أكبر المقتبسين من بوكاشيو في زمانه؛ فقد لَقِيَهِ في إيطاليا، ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم (حكايات كانتريري).

أما (دانتي)، فيؤكد كثيرٌ من النُّقاد أنّه كان في (القصة الإلهيّة) - التي يصف فيها رحلته إلى العالم الآخر - متأثرًا برسالة الغفران للمعرّي، ووصف الجنة لابن عربي.

وقد تأثرت القصة الأوروبيّة في نشأتها بما كان عند العرب من فنون القصص في القُرُون الوسطى، وهي المقامات، وأخبار الفُروسيّة، ومُغامرات الفرسان في سبيل المجد والعشق، وكان لألف ليلة وليلة - بعد ترجمتها إلى اللُّغات الأوروبيّة في القرن الثاني عشر - أثرٌ كبيرٌ جدًّا في هذا المجال؛ حتّى إنها طُبعت منذ ذلك الحين حتّى الآن أكثر من ثلاثمائة طبعة في جميع لُغات أوروبا؛ حتى ليرى عددٌ من النُّقاد الأوروبيين أن رحلات (جليفر) التي ألّفها (سوفت)، ورحلة (روبنسون كروزو) التي ألّفها (ديفوه) - مدينة لألف ليلة وليلة، ورسالة "حي بن يقظان" للفيلسوف العربي ابن طفيل.

ولا حاجة بنا إلى أن نذكر ما دَخَلَ اللُّغات الأوروبيّة على اختلافها من كلمات عربيّة في مُختلف نواحي الحَيَاة؛ حتّى إنها لتكاد تكون كما

هي في اللُّغة العَرَبِيَّة: كالقطن، والحريّر الدَّمشقي، والمسك، والشراب، والجرة، والليمون، والصّفَر، وغيرها ممّا لا يُحصى.

### ثالثاً: في ميدان التشريع

فقد كان لاتّصال الطُّلاب العَرَبِيّين بالمدارس الإسلاميّة في الأندلس وغيرها - أثرٌ كبيرٌ في نقل مجموعة من الأحكام الفقهيّة والتشريعيّة إلى لغاتهم، ولم تكن أوروبا في ذلك الحين على نظام مُتقن ولا قوانين عادلة؛ حتّى إذا كان عهد نابليون في مصر ترجم أشهر كُتُب الفقه المالكي إلى اللُّغة الفرنسيّة، ومن أوائل هذه الكتب "كتاب خليل" الذي كان نواة القانون المدني الفرنسي، وقد جاء مُتشابهاً إلى حدّ كبير مع أحكام الفقه المالكي، يقول العلامة "سيديو": "والمذهب المالكي هو الذي يستوقفُ نظرنا على الخُصوص؛ لما لنا من الصّلات بعرب إفريقيّة، وعهدت الحُكومة الفرنسيّة إلى الدكتور بيرون في أن يُترجم إلى الفرنسيّة كتاب "المختصر في الفقه"، للخليل بن إسحاق بن يعقوب المتوفى سنة ١٤٢٢م".

### رابعاً: في مفهوم الدّولة وعلاقة الشعب بالحكومة

فقد كان العالم القديم والوسيط يُنكر على الشّعب حقّه في الإشراف على أعمال حُكّامه، كما يجعلون الصّلة بينه وبين الحاكم صلةً بين العبد وسيّده، فالحاكم هو السيد المطلق يتصرّف بالشّعب كما يشاء، وكانت المملكة تُعدُّ ملكاً خاصّاً للملك تُورثُ عنه كما تورث بقيّة أمواله، ويستباحون من أجل ذلك أن تقوم الحرب بين دولة وأخرى من أجل المطالبة بحصة أميرة في العرش، أو للخلاف على ميراث الأصهار.

أما العلاقة بين الأمم المتحاربة، فهي استباحة الغالب لكل ما في يد المغلوب، وما في وطنه من مال وعرض وحُرِّيَّة وكرامة، وظلَّ الأمر كذلك حتَّى قامت الحضارة الإسلاميَّة تعلن فيما تعلن من مبادئها: أن الشعب هو صاحب الحقِّ في الإشراف على حُكَّامه، وأن هؤلاء ليسوا إلاَّ أجزاء يسهرون على مصالح الشعب وكرامته بأمانة ونزاهة، وفي هذا يقع لأول مرَّة في التَّاريخ أن يحاسب فردٌ من أفراد الشعب حاكمه عما يلبس، من أين جاء به؟ فلا يحكم عليه بالإعدام، ولا يُقاد إلى السجن، ولا يُنفى من الأرض، ولكن يقدم له الحاكم حسابه حتَّى يقتنع وبقتنع الناس، ولأول مرَّة في التَّاريخ يقول أحد أفراد الرِّعيَّة لحاكمه الأكبر: السَّلام عليك، أيُّها الأجير، فيعترف الحاكم بأنَّه أجير الشعب، عليه ما على الأجير من حقِّ الخدمة بإخلاص، والنصح بأمانة، أعلنت الحضارة الإسلاميَّة هذا فيما أعلنته وطبَّقته بعد ذلك، فما هي إلا نسمة الحرية والوعي تهبُّ في الشعوب المجاورة للمُجتمع الإسلامي، فتتململ، ثم تتحرَّك، ثم تنثور، ثم تتحرَّر.

وكان مما أعلنته حضارتنا في حُرُوبها: احترام العهود، وصيانة العقائد، وترك المعابد لأهلها، وضمان حُرِّيَّات النَّاس وكرامتهم، فأثارت في الشعوب المغلوبة لحكمها روح العِزَّة والكرامة، ونبهت فيهم معاني الإنسانيَّة الكريمة العزيزة .

وكان في التَّاريخ لأول مرَّة أن يشكو والدٌ مغلوبٍ الحاكمَ الغالبَ إلى رئيسِ الدَّولة الأعلى، من أنَّ ولدَ الحاكم قد ضرب ولده الصَّغير خفقتين بالسَّوط على رأسه من غير حق، ويغضب رئيس الدَّولة الأعلى،

﴿ علاقة الأخلاق بنهضة الشعوب وانهيارها ﴾ \_\_\_\_\_  
ويحاسب ولد الحاكم ويقتَص منه، ويقرع الحاكم ويؤنبه، ويقول له: "متى  
استعبدتم النَّاسَ وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!".

إنَّ هذه روح جديدة تبعثها حَضَارَتُنَا في الأفراد والشعوب.

وبعد، فهذه هي بعض الآثار الخالدة لحَضَارَتِنَا في أربعة ميادين  
رئيسية، هي أبرز مظاهر الحَيَاة في الأُمَم والحَضَارَات؛ ومن أَجْل ذلك  
كان لنا - نحن أبناء هذه الحَضَارَة - دِين على الشُّعُوب التي حرَّرتها  
حَضَارَتِنَا، يجبُ أن نستردَّه لا بالتَّفَاخر الكاذب، ولا بالأُماني والأباطيل،  
بل بمعرفتنا لَقَدْر أنفسنا، وقيمة حَضَارَتِنَا، وسُمو ثرائنا، واستحقاقنا لأنَّ  
نكون الأُمة الوسط التي تشهد على النَّاس، وتقودهم إلى الخير والحق  
والكرامة . (١)

### أين الحضارة الإسلامية الآن ؟

لعل حجة المُسْتَخَفِّين من قومنا بقيمة حضارتنا أنها ليست شيئاً إذا  
قيست بروائع هذه الحضارة الحديثة واختراعاتها وفتوحاتها في آفاق العلم  
الحديث، وهذا لو صح لا يبرر الاستخفاف بحضارتنا لسببين:

الأول: أن كل حضارة فيها عنصران: عنصر روحي أخلاقي، وعنصر  
مادي. أما العنصر المادي فلا شك في أن كل حضارة متأخرة تفوق ما  
سبقها، تلك هي سنة الله في تطور الحياة ووسائلها، ومن العبث أن  
تطالب الحضارة السابقة بما وصلت إليه الحضارة اللاحقة، ولو جاز  
هذه لجاز لنا أن نزرّي بكل الحضارات التي سبقت حضارتنا، لما  
ابتدعته حضارتنا من وسائل الحياة ومظاهر الحضارة ما لم تعرفه

(١) د. مصطفى السباعي " خصائص حضارتنا " بتصرف نقلاً عن الشبكة الإسلامية .

الحضارات السابقة قط، فالعنصر المادي في الحضارات ليس هو أساس التفاضل بينها دائماً وأبداً .

أما العنصر الأخلاقي والروحي فهو الذي تخلد به الحضارات، وتؤدي به رسالتها من إسعاد الإنسانية وإبعادها عن المخاوف والآلام، ولقد سبقت حضارتنا كل الحضارات السابقة واللاحقة في هذا الميدان، وبلغت فيه شأواً لا نظير له في أي عصر من عصور التاريخ، وحسب حضارتنا بهذا خلوداً.

إن الغاية من الحضارة هي أن تقرب الإنسان من ذروة السعادة، وقد عملت لذلك حضارتنا ما لم تعمله حضارة في الشرق والغرب.

الثاني: أن الحضارات لا يقارن بينها بالمقياس المادي، ولا بالكمية في الأعداد والمساحات، ولا بالترف المادي في المعيشة والمأكل والملبس، وإنما يقارن بينها بالآثار التي تتركها في تاريخ الإنسانية، شأنها في ذلك شأن المعارك والممالك، فهي لا تقارن بينها بسعة الرقعة ولا بحساب العدد، والمعارك الفاصلة في التاريخ القديم والوسيط لو قيست بمعارك الحرب العالمية الثانية من حيث أعداد الجيوش ووسائل القتال لكانت شيئاً تافهاً، ولكنها لا تزال تعتبر معارك لها قيمتها البالغة في التاريخ لما كان لها من الآثار البعيدة .<sup>(١)</sup>

\*\*\*

(١) د. مصطفى السباعي " خصائص حضارتنا " بتصرف نقلاً عن الشبكة الإسلامية .

## محتوى الكتاب

الصفحة

الموضوع

المقدمة ..... ٥

### الفصل الأول : علاقة النفس الإنسانية بالأخلاق

- المسئول عن سلوك الإنسان ..... ١١
- الفرق بين الإنسان وسائر المخلوقات ..... ١١
- أعوان الإنسان على الإيمان وحسن الخلق ..... ١٣
- أسباب شقاء الإنسان في الدنيا والآخرة ..... ١٥
- واقعية شريعة الإسلام ..... ١٨

### الفصل الثاني : خصائص الأخلاق في الإسلام

- ما الأخلاق ؟ ..... ٢٢
- هل الأخلاق نسبية أم مطلقة ؟ ..... ٢٢
- عوامل ثبات الأخلاق في الإسلام ..... ٢٤
- الصفات النبوية ﷺ قبل البعثة وبعدها ..... ٢٥

|    |                                                |
|----|------------------------------------------------|
| ٢٩ | ..... خصائص الأخلاق الإسلامية :                |
| ٢٩ | ..... - ربانية المصدر                          |
| ٣٠ | ..... - الشمول والتكامل                        |
| ٣١ | ..... - صالحة لكل زمان ومكان                   |
| ٣٢ | ..... - الإقناع العقلي والوجداني               |
| ٣٢ | ..... - المسؤولية                              |
| ٣٣ | ..... - العبرة بالظاهر والباطن من الأعمال معًا |
| ٣٤ | ..... - الرقابة الدينية                        |
| ٣٥ | ..... - الارتباط بالجزاء الدنيوي والأخروي      |
| ٣٧ | ..... - غَيْرِيَّة وليست أَنَانِيَّة           |
| ٣٨ | ..... - الأخلاق والفترة                        |
| ٣٩ | ..... - الوحي والفترة                          |
| ٤٠ | ..... - علاقة الأخلاق بالعقيدة                 |
| ٤١ | ..... - علاقة الأخلاق بالعبادات                |

٤٥ ..... من صور الاستهزاء بآيات الله

### الفصل الثالث : فضائل الأخلاق الحسنة

٥١ ..... مكانة المؤمن حسن الخلق

٥٢ ..... مكارم الأخلاق أثقل شيء في الميزان يوم القيامة

٥٣ ..... الأخلاق الحسنة تضاعف الأجر والثواب

٥٣ ..... الأخلاق الحسنة من خير أعمال العباد

٥٣ ..... الأخلاق الحسنة تزيد في الأعمار وتُعمّر الديار

٥٣ ..... الأخلاق الحسنة علامة على كمال الإيمان

٥٤ ..... مكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية

### الفصل الرابع : الالتزام الأخلاقي

٥٩ ..... سُلّم القيم الإيجابية والسلبية

٦٣ ..... علاقة الأخلاق بأصحاب الحقوق علينا

٦٧ ..... أقسام التشريع الإسلامي

|                                                         |    |
|---------------------------------------------------------|----|
| يسر الإسلام وتنطع بعض الدعاة                            | ٦٧ |
| إباحة النبي ﷺ الترويح عن النفس                          | ٧٥ |
| الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان                     | ٧٧ |
| التناقضات العملية للإلزام الأخلاقي                      | ٨٢ |
| كيف جمع الإسلام بين حرية الاختيار والإلزام الأخلاقي     | ٨٤ |
| الحل القرآني للإلزام الأخلاقي                           | ٨٧ |
| الرقابة الإلهية على الأعمال الإنسانية                   | ٨٩ |
| ربط الحكم بالغاية منه                                   | ٩١ |
| لماذا جعل الإسلام عقوبات دنيوية على الجرائم الأخلاقية ؟ | ٩٣ |

### الفصل الخامس : المسؤولية

|                                                         |     |
|---------------------------------------------------------|-----|
| أنواع المسؤولية                                         | ٩٧  |
| هل هناك تعارض بين المسؤولية الوطنية والمسؤولية الدينية؟ | ٩٧  |
| الإرهاب والمسؤولية الوطنية                              | ٩٩  |
| شروط المسؤولية الأخلاقية                                | ١٠٠ |

| الصفحة | الموضوع                                                  |
|--------|----------------------------------------------------------|
| ١٠٢    | كيف يُحْمَلُ العصاة ذنباً مع ذنوبهم ؟ .....              |
| ١٠٤    | المفهوم الإسلامي للشفاعة يوم القيامة .....               |
| ١٠٧    | الأساس القانوني للمسئولية .....                          |
| ١٠٩    | هل بمقدور الإنسان أن يزكى نفسه ويطهرها من فجورها ؟ ..... |
| ١١٢    | كيف يزكي الإنسان نفسه؟ .....                             |
| ١١٨    | المقصود بجهاد النفس ؟ وكيفيته ؟ .....                    |
| ١٢٠    | إجمال الشروط اللازمة لقيام المسؤولية أمام الله .....     |
| ١٢١    | مراتب الناس في قبول تهذيب الأخلاق .....                  |
| ١٢٢    | هل قمع الشهوة والغضب وحب الدنيا بالكلية واجب ؟ .....     |
| ١٢٥    | المقصود بدم الدنيا .....                                 |

## الفصل السادس : الجزاء

|     |                                         |
|-----|-----------------------------------------|
| ١٣١ | العقوبات على الجرائم الأخلاقية .....    |
| ١٣٢ | الحدود .....                            |
| ١٣٤ | الإرهاب في اللغة ، والقرآن الكريم ..... |

|     |                                                       |
|-----|-------------------------------------------------------|
| ١٣٤ | الإرهاب في التشريع المصري .....                       |
| ١٣٦ | الفرق بين الجهاد والإرهاب .....                       |
| ١٣٨ | حكم القتال تحت راية عَمِيَّة .....                    |
| ١٤٠ | حكم الخروج على ولي الأمر .....                        |
| ١٤٣ | حكم المرجفون المفسدون في الأرض .....                  |
| ١٤٥ | كيفية مواجهة الإرهابيين أعداء الوطن .....             |
| ١٤٦ | عدالة عقوبات الإسلام على الجرائم الخلقية .....        |
| ١٤٧ | وجوب إقامة الحدود .....                               |
| ١٤٨ | سقوط الحدود بالشبهات .....                            |
| ١٤٩ | التوبة .....                                          |
| ١٤٩ | التعزير .....                                         |
| ١٥١ | شروط التوبة .....                                     |
| ١٥٣ | الحكمة من العقوبات الدنيوية على الجرائم الخلقية ..... |
| ١٥٤ | جزاء الفاسق الذي أفلت من العقوبة .....                |

الصبر على البلاء وتكفير الذنوب ..... ١٥٤

## الفصل السابع : علاقة الأخلاق بنهضة الشعوب وانهيارها

مقومات الحضارة ..... ١٥٩

دعوة القرآن للنظر في أسباب هلاك الأمم السابقة ..... ١٦١

حقيقة ينساها البشر حين يمكن الله لهم في الأرض ..... ١٦٢

الفرق بين التفسير المادي للتاريخ والتفسير الإسلامي ..... ١٦٣

فساد الأخلاق وانهيار الأمم والشعوب : ..... ١٦٤

١- الظلم ..... ١٦٥

٢- بَطَر النِّعَم ..... ١٦٦

٣- الإسراف والتَّرف ..... ١٦٧

٤- ظهور الفواحش ..... ١٦٧

ما يميز الحضارة الإسلامية عن غيرها ..... ١٦٩

خصائص الحضارة الإسلامية ..... ١٧٠

الشواهد الواقعية على الحضارة الإسلامية ..... ١٧٤

- ١٧٧ ..... آثار الحضارة الإسلامية في تاريخ الإنسانية :
- ١٧٨ ..... - في ميدان الفلسفة والعلوم
- ١٧٩ ..... - في ميدان اللغة والأدب
- ١٨١ ..... - في ميدان التشريع
- ١٨١ ..... - في مفهوم الدولة وعلاقة الشعب بالحكومة
- ١٨٣ ..... أين الحضارة الإسلامية الآن ؟

### الفصل الثامن : في سبيل إصلاح الأخلاق وتقدم الأمة

- ١٨٧ ..... تساؤلات حول الحضارة الإسلامية
- ١٨٩ ..... أسباب تخلف المسلمين في العصر الحديث :
- ١٩٠ ..... - الفصل بين الشعائر التعبدية وأخلاق الإسلام
- ١٩٠ ..... - التواكل والسلبية
- ١٩٦ ..... - سوء الظن واتهام الآخرين بغير بينة
- ١٩٨ ..... - النقد الهدّام
- ٢٠١ ..... فضيلة العفو

| الموضوع                         | الصفحة |
|---------------------------------|--------|
| معاصي القلوب :                  | ٢٠٢    |
| - النفاق                        | ٢٠٣    |
| - الرياء                        | ٢٠٩    |
| - الكبر                         | ٢١٢    |
| - الحسد                         | ٢١٨    |
| - حب الرياسة والجاه             | ٢٢١    |
| - حب المال                      | ٢٢٥    |
| - بَطَر النِّعْمَةِ وشكوى الفقر | ٢٣١    |
| - الإسراف والترف                | ٢٣٣    |
| لماذا تقدّم الغرب وتخلّفنا      | ٢٣٨    |
| أنواع المعاصي :                 | ٢٤٠    |
| اللسان : ما له ، وما عليه       | ٢٤١    |
| آفات اللسان :                   | ٢٤٦    |
| - الكذب                         | ٢٤٦    |

|     |                                  |
|-----|----------------------------------|
| ٢٤٨ | الفرق بين الكذب والتكذيب .....   |
| ٢٤٩ | - الغرب والكذب .....             |
| ٢٥٠ | - الغيبة والنميمة والبهتان ..... |
| ٢٥١ | - اللغو .....                    |
| ٢٥٣ | الإمعة .....                     |
| ٢٥٤ | شهادة الجوارح على الإنسان .....  |
| ٢٥٦ | ذكر الله .....                   |
| ٢٥٩ | كتب للمؤلف .....                 |
| ٢٦٣ | محتوى الكتاب .....               |